

فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي
”رؤية تطبيقية في بيان مدى صحة اجتهاداته”
بدءاً من تأسيس القيروان إلى نهاية تأسيس مراكش
” ٥٠- ٤٥٩ هـ / ٦٧٠ - ١٠٦٦ م ”

د . عادل يحيى عبدالمنعم

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية المنتدب
بكلية التربية - جامعة عين شمس " سابقاً "

ملخص البحث:

هذا البحث يتحدث عن فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي بدءاً من تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ/٦٧٠م إلى نهاية تأسيس مراكش سنة " ٤٥٩هـ/١٠٩٦م "

وقد بدأت البحث بالتعريف بابن خلدون ونشأته ومراحل حياته الفكرية والعلمية بإيجاز شديد جداً، ثم أعقب ذلك الحديث عن أسباب قلة المدن والأمصار في المغرب العربي في فلسفة ابن خلدون، مشيراً إلى بعض أقواله في هذا الشأن عن عمران إفريقية والمغرب، وأنه كان بدوياً، وأن العرب لا هدف لهم في بناء المدن سوى توفير المراعي لإبلهم، وأن العرب والبربر أبعد الناس عن الصنائع ... إلى آخر ما قاله .
ثم كان الجانب التطبيقي في البحث من خلال الحديث عن بناء المدن والبلدان في المغرب العربي، ومقارنتها بما قاله ابن خلدون، لبيان مدى ما كان محققاً فيه، وما أصابه من الشطط، وهو ما حرصت على تدوينه في خاتمة البحث وخلاصة الرؤية التطبيقية .

وأياً كانت نتائج البحث والأخطاء وقع فيها ابن خلدون، فيكفي الرجل أنه كان ومازال وسيبقى علامة بارزة في تاريخ الفكر الإسلامي، والله - سبحانه وتعالى - أسأل القبول والسداد والتوفيق .

The conception of Ibn Khaldun in his talk about the countries and cities in the Arab Maghreb.

"An applied vision in explaining the validity of his jurisprudence"

From the foundation of Kairouan to the end of the foundation of Marrakesh "50-459 AH / 670-1066 AD"

This research talks about the conception of Ibn Khaldun in his talk about the countries and cities in the Arab Maghreb, starting from the founding of Kairouan in the year 50 AH / 670 AD to the end of founding of Marrakesh in" 459 AH / 1096 AD".

The research began with the definition of Ibn Khaldun, his upbringing, and the stages of his intellectual and scientific life with a very brief summary, then followed that with a talk about the reasons for the scarcity of countries and cities in the Arab Maghreb in the conception of Ibn Khaldun, referring to some of his sayings in this regard about the construction of Africa and Morocco, and that he was a Bedouin, and that the Arabs had no goal in building cities other than providing pastures for their camels, and the Arabs and Berbers were the most distant people from industries to the last of what he said.

Then the practical aspect of the research was by talking about the construction of cities and countries in the Arab Maghreb, and comparing them with what Ibn Khaldun said, to show the extent of what he was right about, and what he was wrong about, which I was keen to write in the conclusion of the research and the summary of the applied vision.

Whatever the results of the research and the mistakes that Ibn Khaldun fell into, it is sufficient for the man that he was, is, and will remain a prominent mark in the history of Islamic thought, and God – Glory be to Him – asks for acceptance, payment and success.

مقدمة:

أهمية الموضوع والدراسات السابقة وإشكالية البحث فيه: -

تبدو أهمية موضوع بحثي هذا في إنه يمثل رؤية جديدة تتعلق بالمقارنة بين فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، فيما أسماه في مقدمته بالعمران البشرى^(١)، وبين الواقع العملي والتاريخي لنشأة المدن على أرض المغرب.

وهي إن تك رؤية جديدة، فذاك فضل من الله تعالى أفضى إليّ به اجتهادي، وإن تكن غير ذلك فحسبي أنى اجتهدت، وإن هدفي هو استجلاء الحقيقة في ديار الإسلام عامة، وقد يكون في ذلك أيضاً دعوة إلى أعمال العقل في بيان مدى صحة اجتهادات ابن خلدون بمقارنتها على أرض الواقع التاريخي؛ إذ لا يمكن أن يكون الهدف هو تخطئة ابن خلدون فيما ذهب إليه، وهو من يأتي - مع أعلام غيره بالطبع - على قمة تاريخ الفكر والثقافة في ديار الإسلام عامة حتى يومنا هذا، ويتنازع حوله أصحاب تخصصات شتى في العلوم الإنسانية، كلٌ يحاول انتسابه إليه، أو إلى تخصصه.

وخارج عن القصد أيضاً الحكم على الرجل بمقياس العصر الحديث؛ بل إن الحكم على اجتهاداته سيكون من خلال معطيات العصر الذي تمت فيه المنشآت والمدن على أرض المغرب. ولعله من المفيد القول بأن اجتهادات المؤرخين - أياً كانت درجة دقتها - لا يمكن أن تأخذ صفة القداسة، وأن قليلاً منها - خاصة المستند إلى ثقافة قرآنية - تبدو وكأنها قوانين، أو تعميمات لها قوة القانون في العلو التطبيقية، كما هو الحال في قول ابن خلدون أن "الظلم مؤذن بخراب العمران"^(٢)،

(١) يذكر ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضروري، وأن الإنسان مدني بالطبع، ولا بد له من الاجتماع الذي يعبر عنه بالعمران في اصطلاح الحكماء. انظر: ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/٤٠٥م "مقدمة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ص ٤١ وهذا العمران هو الذي يعبر عنه بالطور الحضري، ويعرف بالتمدن، ويمثل قمة الحضارة الإنسانية في رأي نفر من المستشرقين. انظر: وليام سبنسر، المنجزات الإسلامية في تخطيط المدن من الوجهة التاريخية، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ج ١، جامعة حلب ١٩٧٧. ص ٥٥١.

(٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٨٦.

وما عدا ذلك من اجتهادات يمكن إعمال العقل بشأنها ومناقشتها، ما لم تكن هناك وثائق تحسم بصحتها .

وتبدو إشكالية بحثى هذا فيما يتعلق باختلاف التواريخ حول نشأة المدن أو الانتهاء من بنائها، ورغم أن هناك ثمة اتفاق واضح حول بناء القيروان سنة "٦٨٠/هـ" ^(١)؛ إلا إن الآراء قد اختلفت حول بداية تأسيس مراكش، أو الانتهاء منها، أو بنائها .

وقد ناقش القضية المذكورة - من قبل - الأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم رحمه الله تعالى، مشيراً إلى أن هناك إجماعاً واضحاً على أن "يوسف بن تاشفين" هو الذي اختط مدينة مراكش سنة "٤٥٤/هـ ١٠٦٢ م" ^(٢)؛ ومشيراً في نفس الوقت إلى تعدد التواريخ حول بناء المدينة، وأن ابن عذارى يذكر أن أبا بكر بن عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها سنة "٤٦١/هـ ١٠٦٨ م" ^(٣)؛ في حين ذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها في سنة "٤٥٩/هـ ١٠٦٧ م" ^(٤). كما ذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين قد اختطها في حدود سنة "٤٧٠/هـ ١٠٧٧ م" ^(٥).

وخلاصة القول في ذلك الشأن بأن مدينة مراكش قد تم تأسيسها على يد يوسف بن تاشفين سنة "٤٥٤/هـ ١٠٦٢ م" في الفترة التي غادر فيها أبو بكر بن عمر المغرب

(١) يأتي هذا انطلاقاً مما جاء في كتابات بعض المؤرخين أن ولاية عقبة بن نافع كانت سنة "٦٨٠/هـ" وأنه شرع في بناء مدينته آنذاك .

انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي. المغرب العربي، ج ١، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٥. ص ١٨؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسس شباب الجامعة ١٩٨٢. ص ١٠٩؛ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية دون تاريخ. ص ١٤٠ - ١٤٤.

(٢) انظر: سالم: تاريخ المغرب، ص ٦١٦ - ٦١٧ .

(٣) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٤، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط ٣، الدار العربية للكتاب ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) انظر: كاتب مراكش من كتاب ق "٦٦/هـ ١٢ م" كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية) بغداد - دار النشر المغربية ١٩٨٥ ص ٢٠٨ .

(٥) انظر: ياقوت الحموي: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ت "٦٢٦/هـ ١٢٢٨ م" معجم البلدان، ج ٤، دار صادر بيروت دون تاريخ ص ٩٤.

إلى الصحراء لإزالة الخلافات بين قبائل صنهاجة، وأن بناء المدينة قد استغرق خمس سنوات، وأنه تم الانتهاء من بنائها سنة " ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م" طبقاً لما قال به صاحب الاستبصار^(١)، وأن ما عدا ذلك من تواريخ بشأن بناء المدينة أو الانتهاء منها يمكن استبعادها، وهو ما أرجحه تماماً و دفعني إلى اختبار عنوان البحث في فترته الزمنية على النحو المذكور.

وقد أفضى إليّ اجتهادي في بحثي هذا أن أبدأه بالتعريف الموجز بابن خلدون، ثم استعراض لآرائه في بناء الأمصار والمدن في المغرب العربي، ثم الحديث عن مدى صحة اجتهاداته في ضوء الحديث عن المدن على امتداد عصور المغرب التاريخية على النحو التالي:

- مدن عصر الفتح

- مدن عصر الدويلات المستقلة

- مدن الفاطميين والصنهاجيين، وتحتوى هذه الجزئية على المدن التي أنشأها الفاطميون، ومن بعدهم مدن بني زيري الصنهاجيين وأبناء عمومهم من بني حماد، ملحقاً مدينة مراكش اعتماداً على إنها من إنشاء المرابطين وهم من صنهاجة. مختتماً البحث بتعليق وتقييم وكلمة ختام، محاولاً استخلاص أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، سائلاً المولى - عز وجل - أن يلهمني السداد والتوفيق، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

- التعريف الموجز بابن خلدون، ومراحل حياته العلمية :-

يُنسب بنو خلدون إلى العرب اليمانية في حضرموت، وكانوا أول من رفعوا لواء الثورة في إشبيلية في عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن " ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م" واستمرت دولتهم في إشبيلية وقرمونه بالأندلس حتى انتهت في بداية

(١) انظر: سالم: المرجع السابق، ص ٦١٧؛ وهو ما يعنى أن ما ذهب إليه الكاتب المراكشي صاحب الاستبصار هو المرجع لدى، وهو ما اتفق فيه تماماً مع الأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم رحمة الله تعالى عليه؛ وهو ما يعنى أيضاً أن الكاتب المراكشي أعلم بشئون بلده وتاريخها، طبقاً للمثل القائل أهل مكة أدرى بشعابها .

عهد عبدالرحمن الناصر^(١). وإلى هؤلاء ينتسب أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن خلدون المؤرخ والمفكر والفيلسوف، الحضرمي في أصله الأول، الإشبيلي في أصله الثاني، انتقل أسلافه إلى تونس أواسط المائة السابعة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم/ أواسط القرن الثالث عشر من الميلاد، وكان مولده بها في أول رمضان سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م^(٢).

وثمة كتابات تاريخية أشارت باقتضاب إلى تعدد مراحل حياته فيما بين التعليم والنشأة من سنة " ٧٣٢ - ٧٥٣هـ/١٣٣١ - ١٣٥٢م " والمرحلة الثانية من حياته العلمية والعملية التي شملت شمال أفريقيا والمغرب والأندلس بدءاً من سنة " ٧٥٣ - ٧٨٤هـ/١٣٥٢ - ١٣٨٢م " ثم مرحلته الأخيرة التي استقر خلالها في مصر، واستمرت ما يقرب من أربعة وعشرين عامًا بدءاً من " ٧٨٤ - ٨٠٨هـ/١٣٨٢ - ١٤٠٥م " وفيها كانت وفاته بالقاهرة يوم الأربعاء من شهر رمضان عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م^(٣).

(١) انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول / القسم الأول، ط ٣ مكتبة الخانجي ١٩٨٨. ص ٣٣١ - ٣٣٤؛ وقد ذكر ابن الأبار من زعماء بيت بنى خلدون: كريب بن عثمان بن خلدون وأخيه خالد
انظر: ابن الأبار: ابو عبدالله محمد ت " ٦٥٨هـ/١٢٦٠م " كتاب الحلة السيرة، ج ٢، تحقيق: حسين مؤنس، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥. ص ٣٧٦؛ كما ذكر ابن خلدون نفسه عن كريب وأخيه خالد أنهما كانا من أعظم ثوار الأندلس.
انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر، مج ٧، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣. ص ٤٥٢.

(٢) جاء في التعريف بابن خلدون ونسبه ضمن كتابه العبر ورحلته غربا وشرقا إنه عبدالرحمن بن محمد بن ممد بن الحسن بن ممد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن خلدون ... انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧؛ ص ٤٥١؛ ويمكن إحالة القارئ الكريم إلى بعض المصادر التي ترجمت له في كتاب النقد الاجتماعي ضمن الحديث عن الكتابات المرتبطة بالأندلس، وذلك خشية الإطالة. انظر: عادل يحيى عبدالمنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨، ص ٣٥٧ ضمن حواشي الكتاب.

(٣) انظر: أحمد صبحي منصور: مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، دار الأمين، القاهرة ٢٠٠٣ ك ص ١٢.

وقد عاش ابن خلدون حياة فلكة منذ بدايتها، فقد توفي والداه - من جراء طاعون أصاب البلاد - بعد ما يقرب من سبعة عشر عامًا من مولده، ثم عاش في مسيرته العلمية والعملية حياة ملؤها القلق والاضطراب والاعتراب النفسي، وعانى كثيراً من الحقد والحسد ومناقسة أقرانه له في كثير من رحلاته فيما بين المغرب والأندلس، حتى أتيح له في النهاية أن يلجأ إلى مصر في عهد السلطان برقوق سنة " ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م"، وهي فترة لم تسلم مما عانى منه فيما سبق من مراحل حياته، حتى كانت وفاته كما سبق القول (١).

وعلى أية حال الحديث عن حياة ابن خلدون وتراثه الفكري (٢) قد يؤدي إلى إسهاب لا حاجة للبحث فيه؛ فما يهم هنا هو آراء الرجل وفلسفته في الحديث عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، وهو ما سوف أتناوله في الجزئية التالية :-

آراء ابن خلدون عن الأمصار والمدن في المغرب العربي :-

يذكر ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي إنها كانت قليلة، ومرد ذلك إلى أسباب متعددة يمكن وضعها على النحو التالي :-
أولاً : إن إفريقية والمغرب كانت للبربر منذ آلاف السنين قبل الإسلام (٣).
ثانياً : إن عمرانها كان بدوياً، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها (٤).

ثالثاً : إن الشعوب التي حكمت بلاد المغرب - قبل الفتح الإسلامي - قد اقتصر تواجدتها على السواحل، دون منطقة الداخل، وأن المناطق الداخلية قد تُرك

(١) انظر: أحمد صبحي منصور: المرجع السابق، ص ١٦-٢٣.

(٢) تحدث أ. عنان - رحمه الله - عن ابن خلدون وأسرته ونشأته الأولى ووجوده في بلاط فاس، وخدمته السلطان أبي عنان المريني، وتنقله ما بين دمشق والقاهرة. والأندلس، والخصومة بينه وبين الكتاب المصريين حتى مقامه بمصر في نهاية حياته ووفاته بها، كما تحدث عن تراجم ابن خلدون بأقلام معاصريه، وما جاء بشأنه بأقلام بعض المستشرقين الأجانب، فضلاً على تعدد ملكاته ما بين التاريخ والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك. انظر: محمد عبدالله عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، مؤسسة مختار ١٩٩١. ص ١٤-١١٣، ٢٠٦ - ٢٨٧، ١٧٢ - ١٨٨.

(٣) انظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٧.

(٤) انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، نفس الصفحة.

أمرها إلى أهل البلاد من البدو، وهو ما يعنى أن البدو لم ترتفع الحضارة فيهم، وأنهم كانوا أقرب إلى البداوة وشئونها من التحضر والحضارة^(١).

رابعًا : لم يكن هناك انتحال لمهنة "الصناعة" ؛ وهو ما يعنى أنهم لم تكثر مبانيهم، ومن المعروف أن المباني والمنشآت تعتمد على الصنائع التي تعد من توابع الحضارة، وأن تلك الصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة، وإنهم - أي البربر - في حاجة إلى "الحذق فيها" ^(٢) على حد قول ابن خلدون.

وفي إطار حديث ابن خلدون عن الصنائع يشير إلى بعد العرب عامة عن الصنائع وإنهم لا هم لهم في اختطاطهم المدن سوى إنهم: "يراعون مراعى إبلهم" دون مراعاة لحسن اختيار موقع المدينة وطيب الهواء ووجود المياه والمزارع، ويضرب هنا أمثلة متعددة ببعض المدن مثل: - البصرة والكوفة والقيروان، وإنهم لم يراعوا فيها إلا... "مراعى إبلهم" ^(٣).

وفي هذا ما يعنى أن ابن خلدون يساوى بين العرب والبربر في الصفات التي يتصفون بها، وأن البربر أشبه الشعوب بالعرب، وأن حديث ابن خلدون عن أسباب قلة المدن في المغرب العربي عامة ترجع إلى طبيعة العرب والبربر في كل ما قاله من أسباب؛ ويرجح ذلك ما قاله في مقدمته عن العرب إنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، مشيرًا إلى طبيعة التوحش الموجود فيهم وإنهم "أهل انتهاب وعتب" وفي موضع آخر، يذكر عن العرب إنهم "أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلفًا وجبلية، وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج من ربة الحكام، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران" مشيرًا في نفس الموضع إلى أن طبيعتهم "انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم" ^(٤).

(١) انظر: ابن خلدون: نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٢) ابن خلدون: نفسه، ص ٣٥٧ .

(٣) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٩، ولست معنيًا هنا إلا بالحديث عن مدن المغرب العربي فقط، وهو ما سوف يأتي في حينه أو موضعه.

(٤) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٤٤٩ ؛ تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر...، مج ١، ص ١٥٨، وفي قوله الأخير ما يشير إلى ما جاء على لسان عبدالله بن عمر في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى؛ والحديث الشريف دعوة إلى الجهاد، وحماية أمن وحدود الدولة في بدايتها على عهد=



ووفق تلك الرؤية الخاصة بابن خلدون، فإنه يشير إلى ما أحدثته قبائل " بنو هلال وبنو سليم " في إفريقية والمغرب أوائل المائة الخامسة وأثر ذلك على العمران^(١).

خامساً : لم يكن للبربر تشوف إلى المباني، لأنهم أهل عصبية وأنساب وأن العصبية والأنساب لا تخلو من جمع بينهم وأن بسبب تلك العصبية فإنهم يحتمون إلى سكنى البدو، وفي نفس الموضع يوضح ابن خلدون أن لحمة النسب تؤدي إلى العصبية، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو؛ وهو ما يدفعه إلى عقد مقارنة بين عمران بلاد العجم، وعمران بلاد البدو، وأن الأوّل ليسوا أهل أنساب يحافظون عليها وعلى التحامها، وهو ما يؤدي بهم إلى سكنى القرى والأمصار والرساتيق^(٢).

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يفهم منه الدعوة إلى السلب والانتهاج وإعمال السيف كما يفهم من سياق حديث ابن خلدون، وهذا هو ما أفضى إليّ به اجتهادي في هذا الشأن. انظر في نص حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . الإمام البخاري: شيخ الحفاظ محمد بن اسماعيل ت "٢٥٦هـ/٨٧م" صحيح البخاري، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد، دار الاعتصام، القاهرة، دون تاريخ . ص ٦١٢ باب (٨٨) ما قيل في الرماح؛ ومن التفسيرات غير المقبولة للحديث الشريف ما ذكره د. أحمد صبحي منصور، بأن الحديث لا يزال متداولاً حتى الآن بين الجماعات الإرهابية التي تستحل النهب والسلب للآخرين. انظر: أحمد صبحي منصور. مقدمة ابن خلدون دراسة أصولية تاريخية، ص ٤٤٩.

(١) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ١٥٠؛ وفي القول إشارة إلى ما أحدثته قبائل بني هلال وبنو سليم من تخريب في البلاد، وأثر ذلك على معاناة الحكام من بني زيري ولجوئهم إلى المهديّة بعد تخريب القيروان، وشقاء المعز بن باديس بهم .

انظر: ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد ت " ٧٧٦هـ/١٣٧٤م" تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ق ٣، تحقيق: أحمد مختار العبادي محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٧٤-٧٥؛

GEORGES MARCAIS : La Berberie Musulmane Et L'orient au Moyen Age., Paris 1946 pp. 193 -196 .

(٢) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٨؛ ولعل الرساتيق هنا المقصود بها الكور والمدن، وهو ما أوضحه ابن منظور في مادة رستق، رستاق وجمعها الرساتيق. انظر: ابن خلدون: جمال الدين الأنصاري ت "٧١١هـ/١٣١١م" لسان العرب، مج ٣، تحقيق: عبدالله على الكبير وآخرين، دار المعارف دون تاريخ ص ١٦٤٠ مادة رستق

سادساً : إن الدعوة إلى سكنى المدن ترتبط بالدعة والسكون والترف والغنى، ويصير سكانها ... " عيالاً على حاميتها" على حد قول ابن خلدون، وهو ما يجعلهم يستتكفون من سكنى المدينة والإقامة بها، وقد ترتب على ذلك أن أصبح أغلب عمران إفريقية والمغرب، أو أكثره، أو كله بدوياً، فكانوا على حد قول ابن خلدون: " أهل خيام، وظواعن وقباطن وكنن في الجبال" (١) .

هذه هي مجمل أسباب قلة المدن والأمصار في بلاد المغرب العربي من خلال آراء ابن خلدون التي عبرت عنها بكلمة "فلسفة" وأزعم أنى على حق في ذلك؛ فالرجل بالفعل صاحب فلسفة خاصة به في التاريخ والسياسة والاقتصاد والعمران (٢) وغير ذلك مما يمكن أن تكشف عنه البحوث في ميدان العلوم الإنسانية .

بيد أن من المفيد هنا الإشارة إلى أن فلسفة ابن خلدون وآرائه عن المدن والأمصار لا يمكن عزلها عما قاله الرجل عن العرب عامة وإنهم " أعرق في البداوة وأبعد عن الصنائع (٣) " وأن الدين في أول الأمر كان مانعاً من المغالاة والإسراف في البنيان، وأنه يمضي الزمن وعندما غلبت ... " طبيعة الملك والترف، واستخدام

(١) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٧؛ والظعينة في المعنى الأقرب لسياق ابن خلدون، وطبقاً لما جاء في لسان العرب، هو اليهودج سواء أكانت فيه المرأة أو لم تكن، أما القباطي هو ما أسماه ابن منظور في مفردته قبضية، وهو الثوب من ثياب مصر، رقيقة بيضاء، وكأنه منسوب إلى القبط وهم أهل مصر، ومنه حديث عمر رضى الله عنه " لا تلبسوا نساءكم القباطي فإنه إن لا يشف فإنه يصف ". أما الكنن، فقد جاء في اللسان عن الكن أنه البيت والجمع أكنان وأكنه وكنن، وجاء في التنزيل العزيز " وجعل لكم من الجبال أكنانا " القرآن الكريم سورة النحل من الآية رقم ٨١، والكن ما يرد الحر من الأبنية والمسكن، وغير ذلك كثير مما أورده ابن منظور. انظر ابن منظور : لسان العرب، ج ٤، ص ٢٧٤٨، ج ٥، ص ٣٥١٤، ٣٩٤٢ - ٣٩٤٣ مادة ظعن، قباطي، كمن على التوالي.

(٢) ليست هذه الكلمات من قبيل الكلمات المرسلة، فقد تحدث أ . عنان عن ابن خلدون بوصفه: فيلسوف التاريخ، وفيلسوف الاجتماع، والفيلسوف الجامع، وابن خلدون الاقتصادي، كما تحدث عنه المفكر الجزائري الراحل د. عبدالقادر جغلون بوصفه من قام بوضع المعالم الأولى لبناء علم الاجتماع. انظر. عنان: ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ص ١٧٤ - ١٩١ ضمن الفصل الرابع الموسم بـ "ابن خلدون والنقد الحديث"؛ عبدالقادر جفلول: الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ط ٤ دار الحدائق بيروت ١٩٨٧ . ص ١٠٥ (٣) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٨ .

العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترفة، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع" (١) .

وهو ما يعنى أن ابن خلدون هنا يُسلّم بما يحدث من آثار مترتبة على احتكاك العرب بالفرس واختلاطهم بهم (٢)؛ وهذا يدفع إلى القول بأن اختلاط البربر بغيرهم على أرض المغرب قد يؤدي إلى نتائج متماثلة، وهو ما سوف يتم بيانه في سياق الحديث عن مدى صحة اجتهادات ابن خلدون وارتباطها بنشأة المدن والأمصار في أرض المغرب .

مدى صحة اجتهادات ابن خلدون في ضوء نشأة المدن والأمصار في المغرب العربي:

سوف يكون الحديث عن هذه الجزئية على امتداد عصور المغرب العربي التاريخية؛ بدءاً من القيروان في عصر الفتح حتى العصر المرابطي وبناء مدينة مراكش، انطلاقاً من فلسفة ابن خلدون وحديثه عن المدن والأمصار، وذلك للحكم على مدى صحة اجتهادات الرجل، وهو ما يمثل الجانب التطبيقي في بحثي هذا على النحو التالي :-

أولاً : في عصر الفتح :

مدينة القيروان :-

ثمة دراسات تشير إلى أن مستشاري عقبة بن نافع قد أرادوا للمدينة أن تكون قريبة من البحر ليتم الجهاد والرباط، وأن عقبة - رغم ما عُرف عنه من تطرف في جرائته - لم يوافقهم على هذا، وتم الاتفاق على أن تكون المدينة بعيدة عن الساحل، خشية الأسطول البيزنطي، وكذلك غير متوغلة في الداخل خشية البربر، واختير

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ثمة دراسات تشير إلى أن الفرس قد أسهموا في الحياة الإسلامية بعد إتمام فتح العراق وإيران، وإنهم "أي الفرس" أصبحوا رعايا على قدم المساواة مع العرب في العصر الراشدي، واستمر نشاطهم في العصر الأموي رغم ما شابه من تعصب للعرب. انظر. محمود إسماعيل: مغربيات دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب ١٩٧٧. ص ٨٨ ، ضمن بحث بعنوان " الفرس في إفريقيا المغربية "

الموضع قريباً من السبخة التي يمكن أن تكون صالحة لرعي الإبل فيها في أمان تام^(١).

وقد عبر صاحب الاستبصار عن المعنى السابق على لسان عقبة بن نافع قائلاً: "قربوها من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل، نكون إيلكم على بابها في مراعيها أمنة من البربر"^(٢).. وهكذا بُنيت المدينة في موقع استراتيجي أولاً وقبل كل شيء،

(١) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ١، ص ١٨٤؛ وثمة كتابات أخرى تشير إلى حسن اختيار عقبة لموقع القيروان، وأن تنظيم الفتح كان يستدعي إقامة المدينة قريبة من السفوح الصالحة للمرعى، وإنها في موضع متوسط بين الساحل والداخل. انظر: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ١٤٣.

(٢) انظر: كاتب مراكشي مجهول: الاستبصار، ص ١١٤؛ هذا المعنى المذكور جاء التعبير عنه في المصادر التاريخية المبكرة من تاريخ المغرب، والتي لا يهيم الاستطراد في ذكرها، فما بهم هنا رؤية ابن خلدون نفسه ومدى تطابقها مع الواقع التاريخ في الحديث عن المدن والأمصاار في المغرب العربي، كما ورد ذكر المعنى اللغوي لكلمة القيروان، والهدف من بنائها في أن تكون عزاً للإسلام، بمعنى أن الهدف منها - في المقام الأول - كان نشر الإسلام وثقافته وتعاليمه. ويمكن الرجوع هنا في النقاط المذكورة إلى بعض المصادر التاريخية "على سبيل المثال ليس الحصر":-

ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ت "٨٧/هـ ٢٥٧م" فتوح مصر وأخبارها، تحقيق وتقديم: محمد الحجيري، ط ١ دار الفكر بيروت ١٩٩٦. ص ٣٢٩ - ٣٣٣؛ الرقيق القيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم ت يعد سنة "٤١٥هـ/١٠٢٤م" تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: عبدالله العلي الزيدان، وعز الدين موسى، ط ١ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩. ص ٧-٨؛ المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد ت بعد سنة "٤٦٠هـ/١٠٦٧م" كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية...، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، ج ١، ط ٢ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٤ ص ١٠-١٢، الدباغ وابن ناجي: أبو زيد عبدالرحمن ت "٦٩٦هـ/١٢٩٦م"، وأبو القاسم بن عيسى ت "٨٣٩هـ/١٤٣٥م"، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان "تصحيح وتعليق: إبراهيم شبوح، ج ١ ط ٢ الخانجي ١٩٦٨. ص ١١-٢٣؛ ابن عذارى المراكشي، عاش أوائل ق "٨هـ/١٤م" البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإ. ليفي برفنسال، ط ٣ الدار العربية للكتاب، دار الثقافة ١٩٨٣ ص ١٩-٢٠.

وما عدا ذلك من جوانب ترتبط بما كان في موقع المدينة من وحوش وهوام فإنه لا يهم رؤيتي المذكورة، ويمكن إحالة القارئ الكريم إليه (١).

ولعله من المفيد هنا ذكر ما جاء في كتابات نفر من المؤرخين المحدثين عن موقع القيروان الاستراتيجي، ودوافع ذلك البناء من خلال النقاط التالية : -
- البعد عن شواطئ البحر المتوسط لحماية ظهر الجيش الفاتح من مفاجآت الأسطول البيزنطي

- القرب من معازل القبائل البربرية التي لم تدخل الإسلام بعد، ثم هناك رغبة صادقة من عقبة بن نافع في تأسيس مدينة إسلامية على نفس ما حدث في المشرق الإسلامي (٢) .
ومن المفيد هنا أيضاً - وحتى تكتمل الرواية - مقارنة ما جاء في مدينة القيروان بما قاله ابن خلدون - رحمه الله تعالى - الذي أشار إلى أن الشعوب التي حكمت بلاد المغرب - قبل الإسلام - قد اقتصر تواجدتها على الساحل دون منطقة الداخل ؛ وهذا ما خالفه العرب في بناء القيروان . فالمدينة كانت نحو الداخل قليلاً، وابتعدت عن الساحل لأسباب سبق توضيحها، ثم إنها كانت نحو الداخل لحدوث حالة من الاحتكاك بين العرب وقبائل البربر، بما يعود أثره على اعتناقهم الإسلام والدخول فيه (٣)، وهذا يعني أن العرب خالفوا من كان قبلهم في بناء أول مدينة عربية على

(١) انظر: عفيفي محمود إبراهيم: الدلالات التاريخية للأساطير الخاصة باختطاط الحواضر المغربية في عصر الدويلات المستقلة "نموذج فاس" مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا عدد يناير ٢٠٠٠ ص ١١-١٤ .

(٢) انظر: الحبيب الجحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨. ص ٥٥ - ٥٦؛ وثمة آراء تشير إلى أن خروج العرب إلى إفريقية كان الهدف منه نشر الإسلام وتبليغ الدعوة إليه سبحانه، وأن بناء المدينة كان الوسيلة إلى ذلك، وأنها " أي مدينة القيروان " كانت عزا للإسلام، مشيراً في نفس الوقت إلى انقياد كثير من البربر إلى الإسلام عند رؤيتهم لما كان من عقبة بن نافع عند اختطاط المدينة على نحو ما سبق الإشارة إليه في بحث أستاذي أ. د. عفيفي محمود عن الدلالات التاريخية للأساطير .

انظر: محمد محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط دار المنار ١٩٨٨ ص ٧٢ - ٧٣؛ عفيفي محمود: الدلالات التاريخية ...، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) ثمة دراسات أشارت بوضوح إلى انقياد كثير من البربر للإسلام من خلال بناء القيروان إلى الداخل وقربها من البربر. انظر: زيتون : المرجع السابق، ص ٧٣ .

أرض المغرب، وهو ما يعني أيضاً أن ابن خلدون قد امتدح العرب، الذين انساحوا مع أهل البلاد تدريجياً واختلطوا بهم، دون الاقتصار على الساحل كما فعل من سبقهم.

أما عن الجزئية التالية المرتبطة بالحديث عن القيروان، فهي إقامتها في منطقة سبخة صالحة لرعى الإبل وقول ابن خلدون في هذا الشأن عن العرب إن لا هم لهم في بناء مدنهم سوى مراعاة مراعي إبلهم^(١)، وهو لا يعيب العرب في شيء من قريب أو بعيد ولا ينقص من قدرهم، فقد كانوا في طور البداوة، وبدايات الموجات الأولى من الفتح الإسلامي الذي استمر ما يقرب من سبعين عاماً^(٢)، وما كان ممنوعاً عليهم في الطور الأول أو البدايات الأولى، قد أصبح مسموحاً لهم عندما استقرت بهم الأحوال، وأعني به اللجوء إلى الساحل، وهو ما بدأ واضحاً في إنشاءهم لمدينة تونس وهو ما سوف يتم الحديث عنه في الجزئية التالية في إطار عصر الفتح.

مدينة تونس:

مدينة تونس ولدت مدينة بحرية قال عنها الإدريسي إنها: "في وسط جون خارج عن البحر" وأن لها "فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي" وبينها وبين البحر ستة أميال على حد وصفه^(٣).

(١) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٩؛ ويمكن التوفيق هنا بين آراء ابن خلدون، وبين ما قالت به إحدى الدراسات عن النشأة العربية الخالصة لمدينة القيروان، وما يمكن تسميته بسنة العرب الفاتحين في تخطيط المدن والأمصار، واختيار السهول والمنبسطة حفاظاً على ما يسمى بالمزاج العربي في نشأة المدن والأمصار، ومدى التشابه بين السهل المنبسط الذي بُنيت فيه القيروان، وبين مناخ شبه الجزيرة العربية، بما يرجح أن اختيار الموقع لم يكن اعتباطاً، بل كان لحكمة وسياسة ارتأهما عقبة بن نافع، وهو ما لا يخرج عنه ما سبق قوله من دوافع البناء، كما أنه لا يعيب العرب تلبية حاجاتهم البيئية في بناء المدن والأمصار طبقاً لما جاء في متن الدراسة في الجزئية المذكورة.

انظر: محمد العروسي المطوي: سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) ١٩٨١. ص ١٤ - ١٥

(٢) استمر فتح العرب للمغرب مدة طويلة امتدت من سنة ٢٣ هـ حتى ٩٠ هـ/٦٥٣ - ٧٠٨ م
انظر: أحمد إبراهيم الشعراوي: دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، ط ١ القاهرة ٢٠١٥. ص ١٦.

(٣) انظر: الشريف الإدريسي: ت "٥٤٨ هـ/١١٥٤ م" وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية " مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " نشر وتصحيح هنري بيرس، الجزائر ١٣٧٦ هـ/ =

وقد تحدث أ. د حسين مؤنس - رحمه الله - عن بناء تونس بما يشير إلى حتمية بناء المدينة انطلاقاً من كون إفريقية بلدًا بحريًا لا يستغني عن ثغور وأبواب على البحر، وأنه بعد تخريب قرطاجة كان لزامًا على " حسان بن النعمان " أن ينشيء لإفريقية ثغراً آخرًا يحل محله^(١).

ولست هنا بحاجة إلى ذكر التفاصيل التي فصلها البكري في حديثه عن المدينة^(٢)، بقدر ما يهم أن مصر ساهمت بخبراتها البحرية في إنشاء مدينة تونس، عندما استعان حسان بن النعمان بما يقدر بألف أسرة قبطية ممن يجيدون صناعة السفن، وقام باستجلابهم إلى إفريقية، وهم من عمروا دار صناعتها، في حين تم تكليف البربر بجلب الأخشاب من الداخل^(٣).

وكان إنشاء المدينة يعنى انحسار قوة الروم البحرية أو على الأقل أصبح لدى العرب القدرة على مواجهة قوة الروم البحرية، وأنهم أصبحوا قادرين - بمضي الوقت - على أن يكونوا قوة بحرية كما كانوا قوة برية^(٤).

= ١٩٥٧م. ص ٨١؛ وجاء وصفها في كتابات جغرافية مبكرة أنها مدينة " على ساحل البحر وبها دار صناعة ".

انظر: اليعقوبي ت "٢٨٤هـ/٨٩٧م" وصف أفريقيا الشمالية " مأخوذة من كتاب البلدان" نشر وتصيح: هنري بيرس، الجزائر ١٩٦٠ ص ٩؛ والميل حوالي ٤٠٠٠ ذراع أو ١٨٤٨ متراً بالمقادير الحديثة. انظر: مقاييس وأوزان أهل زمان، [islamonline.net /archives](http://islamonline.net/archives)، وما يعني هنا أنها مدينة على ساحر البحر كما قال اليعقوبي في كتابه البلدان .

(١) انظر: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول/ الجزء الأول، ١/١، ط ١١ العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢. ص ١٠٩، ١١٠؛ وجاء في كتابه المعالم أن المدينة أنشئت في موضع يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجة. انظر: مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط ٢١ دار الرشد ١٩٩٧. ص ٥٦.

(٢) انظر: البكري عبيد عبدالله بن عبدالعزيز " ت ٤٨٧هـ/١٠٩٧م " كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس ١٩٦٥ ص ٣٩ حيث يتحدث عن المدينة وأبوابها ... وأنها دار علم وفقه.

(٣) انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ١، ص ٢٣١، ٢٣٢، وغير ذلك كثير.

(٤) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

ورغم أن كثيراً من الكتابات الجغرافية^(١)، فضلاً على كتابات المؤرخين^(٢)، تتحدث عن مدينة تونس تفصيلاً؛ إلا إن المفيد هنا مقارنة ما قاله ابن خلدون عن العمران في إفريقية والمغرب إنه كان بدوياً بما حدث على أرض الواقع التاريخي ومساهمة مصر ودورها الحضاري في بناء تونس من خلال الأسر القبطية التي تم الاستعانة بها في بناء المدينة، بما يشير إلى أن العمران في بعض الحالات - أو في قليل منها - لم يكن بدوياً^(٣).

وإذا لم يكن هناك انتحال لمهنة الصناعة بين العرب والبربر؛ فإن وجود ألف أسرة قبطية كفيل بأن يؤدي إلى شيوع تعليم صناعي بين أوساط العرب والبربر، خاصة وأن المرويات التاريخية تشير إلى تكليف البربر بجلب الأخشاب من الداخل في صناعة السفن، وأن ذلك التقارب يمكنه أن يؤدي إلى التعلم في حد ذاته، على اعتبار أن الإنسان - وكما يقول ابن خلدون نفسه - مدنى بطبيعته^(٤). وهذا يعني أنه يؤثر ويتأثر، وهو استقرار يفرضه الواقع التاريخي، انطلاقاً من أن العلم يتم بالتعلم والممارسة والمشاهدة والاختلاط^(٥) وهي جميعها جوانب حدثت على أرض الواقع

(١) انظر: على سبيل المثال. اليعقوبي: وصف إفريقيا، ص ٩؛ البكري: المغرب، ص ٣٩؛ الإدريسي، وصف إفريقيا ص ٨١، فضلاً على ما ذكرته كتب الجغرافيين والرحالة المتأخرين بما يؤدي إلى إسهاب لا حاجة للبحث فيه، ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى ما ذكره ياقوت في سبب بناء مدينة تونس، وأن حسناً عندما دخل المدينة سأله الروم أن لا يدخل عليهم، ويضع عليهم خراجاً يقسّمه عليهم، فأجابهم إلى ذلك " وكانت لهم سفن معدة ، فركبوا ونجوا وتركوا المدينة خالية "

انظر: ياقوت : شهاب الدين أبي عبدالله الحموي ت "٦٢٦هـ / ١٢٣٨م" معجم البلدان، مج ٢، دار صادر بيروت دون تاريخ. ص ٦١ ضمن الحديث عن المدينة ص ٦١ - ٦٢

(٢) أقصد بكتابات المؤرخين هنا سواء أكانوا القدامى أم المحدثين على حد سواء .

(٣) استقرار يفرضه الواقع التاريخي، ومما أفضى إلى به اجتهادي.

(٤) يقول ابن خلدون في هذا الشأن أن المجتمع الإنساني ضروري... وأن الإنسان مدنى بالطبع، ولا بد له من الاجتماع، انظر. ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١.

(٥) يكفي هنا الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون أن "التعلم والتعليم طبيعي في العمران البشري" وهو ما يعني أيضاً أن النزوع إلى العلم والتعليم من الأمور الفطرية التي جبلت عليها النفس البشرية، كما إن ابن خلدون يربط ازدهار التعليم بازدهار العمران. انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٤٢٩، أحمد صبحي منصور: مقدمة ابن خلدون، ص ٤٧٧.

التاريخي، وقد يكون من بينها ما يؤدي إلى جذب البربر لسكني المدن والابتعاد شيئاً فشيئاً عن الداخل .

وفضلاً على ذلك، فهل لي أن أقول مجتهداً أن بناء مدينة تونس يدحض فكرة نجاح العرب في التغلب على البسائط فقط، بدليل نجاحهم في إنشاء مدينة تونس، . وأن القيروان - كما يقول أ. د. مؤنس - كانت تكفي لمطالب الوافدين العرب في سنواتهم الأولى من خلال حاجاتهم إلى الحشائش لرعى الإبل والخيل^(١)، وأن إنشاء تونس كان يعنى خطوة نحو مزيد من الكفاية لتحقيق مطالب الدولة؛ بما يشير إلى نجاح العرب على السواحل كما نجحوا من قبل في الدواخل من خلال إنشاء القيروان، بما يتنافى مع ما كانت تظنه الكاهنة عن العرب إنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، وإنهم أهل تخريب لا يمهم إلا الغنائم^(٢) .

وعلى أية حال، فإن بناء مدينة تونس وتعميرها بعد ما نالها من تخريب من خلال مدينة قرطاجة القديمة^(٣) لهو دليل على أن العرب لهم دورهم في التعمير والإنشاء، وأنهم ليسوا أهل انتهاب وسلب، ولم يكن من طبيعتهم التوحش كما قال ابن خلدون، متناسياً أن الحضارة الإسلامية لعبت دوراً مهماً في تهذيب الجبلية العربية.

ثانياً: عصر الدويلات المستقلة حتى قدوم الفاطميين:

أول ما يطالعنا في تلك الفترة من المدن والأمصار مدينة العباسية أو القصر القديم، وهناك مدنية رقادة وكلاهما من المدن التي أنشئت في ظل دولة الأغالبة السنية في إفريقية، وهي إحدى دول ثلاث تقاسمت المغرب العربي، وهي الدولة الرستمية الإباضية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، فضلاً على إمارة بنى مدرار في سجلماسة وهي إمارة تدين بالمذهب الصفري^(٤) .

(١) انظر: مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج ١/ ج ١، ص ١١١ .

(٢) شخصية الكاهنة من الشخصيات المعروفة في تاريخ المغرب التي قد تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، بيد أنه لا يمكن إنكارها، وهي: دهيا أو دحيا بنت ماثيه ابن تبغان ملكة جبل أوراس، المنتمية إلى قبيلة جراوة من بدو زناته. وقد ذكر ابن خلدون عن هذه المرأة أنها كانت يهودية هي وأتباعها. انظر: في النقاط المذكورة تفصيلاً. الشعراوي: دور العرب، ص ٤٠

(٣) انظر: مؤنس: تاريخ المغرب، ١/١، ص ١٠٩ .

(٤) يمكن القول في إطار الفكرة المذكورة إن دولة الأغالبة في إفريقية قد امتدت من سنة "١٨٤- ٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٨م" ثم كانت إمارة بنى واسول الصفرية أو بنى مدرار في سجلماسة="

مدينة العباسية أو القصر القديم :-

وبداية يصدق على الفترة المذكورة - المتصدي للحديث عنها - ملاحظة ابن خلدون عن قلة المدن في تلك الفترة التي تمتد إلى ما يقرب أو يزيد قليلاً على قرن الزمن حتى قدوم الفاطميين .

وقد أورد البكري عن مدينة العباسية أو القصر القديم ما يفيد إنها بنيت بقبلي مدينة القيروان^(١)، فيما يعني إنها إلى الداخل منها، وكان البناء على يد إبراهيم بن الأغلب في بداية حكمه لدولة الأغلبة^(٢) وبعض المرويات التاريخية والجغرافية^(٣) لا تعطى تفصيلاً عن طبيعة بناء المدينة، واكتفي النوع الثاني من المرويات المذكورة بما جاء في وصف المدينة قائلاً عنها بأنها .. " لم يبين أحكم منها ولا أحسن منظرًا، وبه حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمّة ومواجل الماء، وإذا قحطت القيروان وفقد الماء في مواجها انتقلوا الماء من مدينة القصر"^(٤)؛ وفي هذا ما يدل على أن البناء لم يكن

١٤٠ = ٢٩٧ هـ / ٧٥٧ - ٩٠٩ م وحكمت دولة الأدارسة في فاس والمغرب الأقصى " ١٧٢ - ٣٠٥ هـ / ٧٨٨ - ٩١٧ م" واستمرت الدويلات المذكورة أو الولايات المذكورة حتى مجيء الفاطميين بدءاً من عهد عبيد الله المهدي ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م

انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف ١٩٧٩ ص ٢١؛ وانظر أيضاً: ما كتبه العالم الجليل أستاذي أ.د. محمد عيسى الحريري عن نسب الرستميين والبيت الرستمي ضمن كتابه الرائع: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس ١٦٠ - ٢١٦ هـ. ط ٣، دار القلم، الكويت ١٩٨٧ ص ٧٣ - ٧٦. وانظر لصاحب الدراسة التقديم للظروف السياسية ضمن كتاب: العلم والتعليم في المغرب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢١ ص ١٦.

(١) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٢٨ ، ٢٩.

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٣١ ويحدد أ. د سعد زغلول تاريخ بناء المدينة سنة " ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م" وهي السنة التي تولى فيها إبراهيم بن الأغلب حكم دولة الأغلبة.

(٣) انظر: على سبيل المثال " من الكتابات التاريخية " ما ذكره ابن عذارى عن المدينة باقتضاب شديد ، وأن إبراهيم بن الأغلب شرع في بناء مدينة القصر القديم سنة " ١٨٥ هـ / ٨٠١ م" وأن المدينة صارت دار الأمراء من بني الأغلب، و.... "وكانت على ثلاثة أميال من القيروان" . انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) الحميري: محمد بن عبدالمنعم ت " ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م" كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: احسان عباس، ط ٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠ ص ٤٧٦، كما جاء عن القصر =

بدائيًا ولا عشوائيًا كما يذهب ابن خلدون في مجمل مروياته عن بناء المدن عند العرب .

وعلى أية حال، لقد أخذت مدينة القصر القديم اسم العباسية تيمناً بالخلافة العباسية^(١)، بيد إن ما يهم هنا أيضا هو ما قاله ابن خلدون عن تغير طبيعة البناء عند العرب عقب اختلاطهم بالفرس^(٢) واعتماد الدولة العباسية عليهم في نشأتها؛ بما يرجح أن إبراهيم بن الأغلب قد استفاد من دولة الخلافة في بنائه للمدينة، وأنها أمدته بما يحتاجه من أهل الصنائع والبناء من ذلك العنصر الفارسي، وأن نفرًا من أهل البلاد - سواء أكانوا من العرب الوافدين أم البربر - قد شاركوا في عملية البناء، بما يشير إلى دحض فكرة ابن خلدون عن ابتعاد العرب والبربر عن انتحالهما لمهنة الصناعة كما سبق القول، وأن الاستعانة بالعنصر الفارسي في البناء من خلال ما سبق استتباطه عن اعتماد الخلافة العباسية على العصر الفارسي في نشأتها يمكن أن يشيع تعلم الصنائع والحرف في بلاد المغرب بين أهل البلاد من البربر ومن العرب الوافدين، وفي الحديث عن دار صناعة تونس، ومشاركة الأسر القبطية في البناء ما يدل على وجاهة الفرضية المذكورة، بما يدل على أن تعلم الصنائع يأتي بالمشاركة والمشاهدة وهو ما حدث على أرض الواقع .

- مدينة رقادة :

أما عن المدينة الأخرى، هي مدينة رقادة، فقد قال عنها ياقوت في معجمه " ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرق تربة منها، ويقال إن من دخلها لا يزال مستبشرًا من غير سبب^(٣) ؛ وهي التي بنيت على أربعة أميال من القيروان إفريقية فيما يعنى أيضًا إنها إحدى ضواحي مدينة عقبة على حد قول أ . د . سعد زغلول . ومن المهم هنا القول بأنها كانت مدينة ذات مناخ طيب، وهو يخالف ما قاله ابن

=القديم، أو العباسية، في كتابات أخرى ما يشير إلى كثرة البساتين بها ، وأشجار التين، انظر:

البكري : كتاب المغرب، ص ٢٩؛ ياقوت: معجم البلد ١، مج ٤ ، ص ٧٥ .

(١) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢.

(٢) انظر: ما سبق قوله عند الحديث عن آراء ابن خلدون، وتأثر العرب بالفرس واستخدام العرب لهم .

(٣) ياقوت: معجم البلدان، مج ٣، ص ٥٥.

خلدون بشأن تأسيس المدن في إفريقية والمغرب إنه لا يراعى فيها المناخ . ولا الموقع، وقد جاء في سبب تسمية المدينة - التي بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة " ٢٦٣هـ/ ٨٧٦ م " أن من دخلها يطيب له المقام بها، ويغلب عليه النوم والرقود^(١). وفي هذا ما يعني أن ابن خلدون لم يكن محققاً في بعض ملاحظاته في وصفه بأن المدن في المغرب العربي لا يراعى فيها طبيعة الموقع واعتدال المناخ، كما إنه كان على حق في بعض جوانب أخرى، كما سبق القول.

مدينة تاهرت :

وفي ظل الدولة الرسمية، تم بناء مدينة تاهرت، وقد ورد ذكرها عند البكري تيهرت، والذي قال عنها إنها مدينة مسورة، مشيراً إلى ما لها من أبواب وإنها ... "مدينة باردة، شديدة البرد، كثيرة الغيوم"^(٢)، وقد أصبحت مركزاً للدولة الرسمية بدءاً من سنة " ١٤٤هـ/ ٧٦١ م " على يد عبدالرحمن رستم^(٣) دون الدخول في تفاصيل تاريخية ودينية ومذهبية^(٤)، فما يهم طبيعة البناء نسه. وقد بُنيت المدينة في سفح

(١) انظر: ياقوت: معجم، مج ٣، ص ٥٥؛ ولم يذكر ابن عذارى عن المدينة سوى قوله ... " وفي سنة ٢٦٣، ابتداء إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بناء مدينة رقادة "، وثمة كتابات أخرى من المؤرخين المحدثين تحدثت عن المدينة، وأشارت إلى تفسيرات أو تفسير آخر في سبب التسمية، وهو ما لا تهتم به رؤيتي التطبيقية التي تبحث فقط في آراء ابن خلدون. انظر: ابن عذارى: البيان؛ ج ١، ص ١١٧، سعد زغول: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ١١٦ - ١١٩.

(٢) البكري: كتاب المغرب، ص ٦٦

(٣) عن شخصية " عبدالرحمن بن رستم وتأسيس مدينة تاهرت. انظر: ابن الصغير: مؤرخ الدولة الرسمية عاصر ق " ٩/هـ٣ م " أخبار الأئمة الرسميين، تحقيق وتعليق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦. ص ٢١ - ٢٢؛ سعد زغول: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٢٩، وتلقى بعض كتابات المؤرخين المحدثين أيضاً الضوء حول شخصية عبدالرحمن بن رستم، وإنه ابتنى تاهرت مدينته الجديدة أعلى تاهرت القديمة، وجعلها في هيئة حصن، وأن المدينة تقع على هضبة بين الجبال كان يؤمنها من أخطار الأعداء، وأن الموقع كان ينيح لها وفرة من الماء، ويفسح المجال لاشتغال أهلها بالرعي، وهم من البدو والرعاة، أو البتر الزناتيين، وهذا يفسر قبول أهلها لمبادئ المذهب الإباضي. انظر: مؤسس: تاريخ المغرب، مج ١/ ج ١، ص ٣٢٣

(٤) عن نشأة الدولة الرسمية، ونسب الرسميين والبيت الرستمي ومذهبها الإباضي يمكن الرجوع إلى عيسى الحريري: الدولة الرسمية بالمغرب الإسلامي، ص ٧٣ - ٧٦؛ وتقديم صاحب=



جبل يسمى " قزول " حسب رواية الحميري، وعلى نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب، ونهر آخر يجتمع حوله العيون لأراضيها وبساتينها^(١)؛ وهو ما يعني أنها كانت بها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم، وما يترتب على ذلك من وجود بساتين وأشجار وفواكه .

وتشير كتابات المؤرخين المحدثين إلى أن بناء المدينة قد تم في أعلى منطقة جبلية على تلال منداس، وتوجه أنظارها نحو الداخل، وتدبر ظهرها للبحر مشيراً إلى أن المنطقة التي بنيت فيها المدينة عرفت بثروتها الزراعية وكثرة مراعيها، وإنها كانت إقليمياً للمرعى والإنتاج الحيواني^(٢)، وخلاصة اجتهادي فيها أنها مدينة جبلية على سطح البحر^(٣).

وتتفق طبيعة بناء المدينة بالشكل المذكور مع ما قاله ابن خلدون عن اهتمام العرب بتخطيط المدن بشكل يراعى فيه وجود المراعي لإبلهم ودوابهم؛ بيد إن وجود المياه فيها، وما يتبعه من أشجار وثمار وبساتين يدل على أن تخطيط البناء لم يكن عشوائياً وبدائياً.

كما إن الظروف السياسية قد تلعب دوراً مهماً في بناء المدينة كما هو الحال في مدينة تيهرت من خلال ما يحيط بها من إمارة سنوية تتمثل في دولة الأغالبة،

=الدراسة للظروف السياسية والفكرية في المغرب العربي ضمن تقديمه للحديث عن التعليم.

انظر: عادل يحيى: العلم والتعليم، ص ١٤-١٥، ٣٢-٣٣

(١) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٦، ١٢٧، ولا يهمل هنا ما جاء عن المدينة إنها كانت مدينتين كبيرتين أحدهما قديمة والأخرى محدثة حسبما قال الحميري ، وقد يكون من المفيد هنا أن الإباضية اجتمعت حول " عبدالرحمن بن رستم " ونزلوا موضع تاهرت اليوم ... " وهو غيضة " بما يشير إلى الموضع الذي يوجد فيه الماء و الشجر. انظر: ياقوت : معجم البلدان، مج ٢، ص ٧-٨، وانظر عن تاهرت أيضاً. مجهول: كتاب الاستبصار، ص ١٧٨

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٢، ص ٢٩١، ٢٩٣.

(٣) لا يوجد تناقض هنا بين ما جاء بشأن المدينة إنها تقع على هضبة بين الجبال ، أو أنها تقع على أعلى منطقة جبلية على تلال منداس، وهو ما أفضى إلى به اجتهادي، وقد جاء في كتاب ابن الصغير، وفي حواشي التحقيق والتعليق ما يفيد أن الإباضية هم من بنوا مدينة تاهرت، وأن لفظة تيهرت أضبط من تاهرت، وأن المدينة تبعد عن الجزائر العاصمة بما يقدر الآن بحوالي ٤٣ كم .

انظر: ابن الصغير أخبار الأئمة الرسميتين، ص ٢٨، ٢٩ وحاشية رقم (٢) ص ٢٨، ٢٩.

وأخرى شيعية وهى دولة الأدارسة؛ وهو ما يعني أن طبيعة الاختلاف المذهبي، وما يحيط بالدولة من أعداء قد يساهم في جعل موقع المدينة استراتيجياً، ويسمح لها أن تعيش في أمان طبقاً لما أشار إليه أ. د سعد زغلول^(١).

مدينة سجلماسة:-

هي إحدى المدن التي قامت في ظل إمارة بني مدرار - أو بنى واسول - ذات المذهب الصفري؛ وهي نمط من المدن يمكن أن يُقال عنها إنها مدينة صحراوية؛ طبقاً لما عرفها البكري بأنها في أول الصحراء، ولا يعرف في غربيها ولا قبليها عمران، بما يشير إلى أنها على حدود الصحراء^(٢)

وقد بنيت المدينة سن "١٤٠هـ/٧٥٧م" على يد مدرار بن عبدالله؛ والذي قيل عنه أنه كان رجلاً من أهل الحديث، وقيل عنه أيضاً أنه كان رجلاً حداداً من أهل الأندلس، ومن أهل قرطبة تحديداً، وأياً كان الاختلاف بشأن طبيعة الرجل ومهنته، فما يهم أنه من قام بالبناء، وسورها أبو المنصور بن أبي القاسم بن مدرار^(٣).

بيد إن ما يهم هنا - وفي إطار رؤيتي التطبيقية عن فلسفة ابن خلدون - هو طبيعة الدور الذى لعبه اليهود في بناء مدينة سجلماسة، حيث تشير المصادر إلى ذلك الدور صراحة، وأن أهل سجلماسة قد قصروا.... "البناء عليهم خاصة أنهم خائفون أبداً من أن يخون أحدهم المسلم فيهلكه، فهم ينصحونهم في البناء ويلتزمون

(١) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ٢٩١.

(٢) انظر: البكري: كتاب المغرب...، ص ١٤٨؛ وثمة دراسات تشير إلى أن المدينة بُنيت على حدود الصحراء في بلاد السودان. انظر: عبدالرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط ١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٤م. ص ٥٠؛ وعن طبيعة إمارة بنى مدرار ومذهبها الصغرى يمكن الرجوع إلى ما كتبه صاحب الدراسة في تقديمه الظروف السياسية والفكرية ضمن كتاب: العلم والتعليم، ص ١٤، ٣١ - ٣٣.

(٣) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ١٤٩، وعن مدينة سجلماسة وما ارتبط بها من أحداث تاريخية حتى وقوعها في أيدي الفاطميين يمكن الرجوع إلى .. كاتب مراكشي: كتاب الاستبصار، ص ٢٠٠ - ٢٠٦؛ الحميري: كتاب الروض المعطار، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ وغير ذلك كثير.

الحذقة، دون خروج لفرائض الصلوات، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات، فتأتي حذقتهم موفرة سريعة " (١) .

وفي هذا ما يشير إلى مدى صدق ابن خلدون في حديثه عن العرب أو البربر على اعتبار أن اللاحقين اشبه الناس بالعرب، وأن كليهما - سواء أكانوا العرب أم البربر - يأنفون من الصنائع، أو انتحال مهنة الصناعة، وهو ما يفسر اقتصار حرفة البناء على اليهود فقط واستثناهم بها؛ ولعل مرجع ذلك - حسبما نقول بذلك مروية صاحب الاستبصار - إلى أن اليهود يواصلون عملهم في البناء دون خروج إلى عبادات أو صلوات كما هو الحال عند المسلمين، وأن خدمتهم أو أدائهم لعملهم بهذا الشكل يؤدي إلى السرعة في الإنجاز، والتوفير في الوقت، هذا فضلاً على أن اليهود وهم يمارسون عملهم في البناء يشعرون بالخوف إذا ما حدثت منهم خيانة للمسلمين في أعمال البناء، فيكون ذلك سبباً في تعرضهم للهلاك جزاءً وفاقاً لخيانتهم (٢).

ومع التسليم بأن حرفة البناء قد اقتصر العمل بها على اليهود في بناء مدينة سجلماسة؛ فإن هذا قد يكون مناسباً في وقت بناء المدينة فقط، حيث يشير صاحب الاستبصار إلى تبدل الأحوال على عهده، وفي إطار الفترة التي عاصرها وهي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، من حيث التمازج والاختلاط بين اليهود ممن يحترفون حرفة البناء، وبين المسلمين من سكان أهل سجلماسة الأصليين، أو الوافدين، قائلاً في ذلك : -

"وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم" (٣). وقد يكون في ذلك التمازج ما يشير إلى قيام نفر من أهل البلاد - الأصليين أو الوافدين - بالمشاركة في حرفة

(١) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٢؛ وينبغي الإشارة هنا إلى أن اليهود من العناصر القاطنة لبلاد المغرب منذ القدم، ومنذ انتشار اليهودية في المغرب في القرن الأول الميلادي على أيدي المهاجرين اليهود الذين فروا من فلسطين عقب اضطهاد الرومان لهم .
انظر: رضوان البارودي : أضواء على المسيحية والمسيحيين في المغرب في العصر الإسلامي، دار الفكر العربي ١٩٩٠ ص ٣؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ١، ص ١٦؛ وعن التواجد اليهودي في المغرب عامة يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي، ص ٥٣ - ٦٠.

(٢) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٢

(٣) كاتب مراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

البناء، بل يمكن استقراء أن كثيراً من أهل البلاد - وخاصة ممن ينتمون إلى الطبقات الدنيا، وما فوقهم قليلاً - قد مارسوا تلك المهنة وتعلموها خاصة بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من بناء مدينة سجلماسة حتى الفترة التي عاصرها صاحب الاستبصار، وقد يزيد هذا الاستقراء ثباتاً في ضوء القول بأن حرفة البناء ليست من المهن الحقيرة التي اختص بها اليهود في سجلماسة قياساً بما كانوا يعملونه فيما يسمى "بالكنافة"^(١).

كما إن طبيعة الحضارة الإسلامية تحترم العمل اليدوي وتقدر قيمته ومدى الآثار المترتبة عليه سواء أكانت على الفرد أم على المجتمع، وهو ما أغفله ابن خلدون تماماً، وهو ما يعني أن ما كان يأنف منه العرب أو البربر في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، لا يمكن دوام الأنفة منه طوال قرون سته أو ما فوق ذلك؛ فيما يعني أيضاً أن ابن خلدون قد أغفل - في غفلة، أو دون قصد منه - بيان أثر تعاليم الإسلام في الشخصية الإسلامية سواء أكانت من البربر أم العرب.

وفضلاً على ذلك، فإن وصف مدينة سجلماسة بما يشير إلى أنها ذات بساتين ومزارع، وإنها كثيرة النخيل والأعشاب وعيون المياه^(٢)؛ ما يدل على أن ذلك النمط من المدن الصحراوية لم يكن عشوائياً أيضاً أسوة بما سبق قوله في المدن السابقة، خلافاً لما كان يقوله ابن خلدون عن العرب أنهم لا يراعون حسن اختيار موقع المدينة، أو طيب هوائها، أو وجود المياه والمزارع بها .. إلى غير ذلك مما سبق بيانه.

(١) ثمة دراسات تشير إلى أن اليهود قد فرض عليهم العمل في مهن حقيرة، مثل الكنافة والبناء. انظر: عبدالرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي، ص ٥٠؛ والكنافة هنا مردها إلى مادة كنف في لسان العرب، وهي حظيرة تقام من خشب أو شجر لحماية الإبل من البرد، وفي العامية الدارجة في ريف مصر يطلق علي من يقوم بهذه المهنة "كلاف" والكنافة والكنافين تعطى هنا نفس المعنى، والحظيرة تسمى كنيفا. انظر: ابن منظور: لسان: مج ٥، ص ٣٩٤٠، ٣٩٤١ مادة كنف .

(٢) وصف الإدريسي مدينة سجلماسة بأنها .. " مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنت، رائعة البقاع والجهات، ولا حصن عليها، وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء ... مشيراً إلى أن مياهه تزداد في الصيف، مشبهاً ما يزرع فيها بما يزرعه فلاحو مصر .. انظر الإدريسي: وصف أفريقيا، ص ٣٧.

مدينة فاس:-

من أفضل المدن التي يمكن أن يكون الحديث عنها دحضاً لما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عن العقلية العربية في بناء المدن، وأن العرب لا يراعون مناخاً ولا موقعاً ولا هدف لهم سوى مرعى إبلهم . وقد اعتمد الأستاذ الكتاني في حديثه عن مدينة فاس على ما جاء في بعض الكتابات الجغرافية والتاريخية التي تشيد بالمدينة التي تحيطها المياه والشجر من جميع جهاتها، وإنها تستطيع أن تمتد كافة المدن من حولها بما تحتاجه^(١)؛ وهذا المعنى الأخير هو الذي عبر عنه عبدالواحد المراكشي في معجبه^(٢)، بما يشير إلى أن المدينة كانت بمثابة ظهير جغرافي حيوي تمتد المدن من حولها بما تحتاجه، وقد امتدحها ياقوت الحموي في معجمه قائلاً عنها "... وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها إلا غرناطة الأندلس^(٣).

وتلقى كتابات نفر من المؤرخين المحدثين الضوء حول طبيعة المدينة التي بنيت - كما هو معلوم للباحثين - على يد الإمام إدريس الأصغر سنة "١٩٠هـ/ ٨٠٥م" على دفتين؛ الأولى ابتداءً من سنة "١٩١هـ/ ٨٠٦م" وهو الجزء الخاص بعودة الأندلسيين الذي بنى على الضفة الشرقية لنهر فاس، ثم كانت الثانية في عام "١٩٣هـ/ ٨٠٨م" على الضفة المقابلة لنهر فاس وهي عدوة القرويين^(٤).

(١) انظر: محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى، ط ٢ بيروت ١٩٧٢. ص ١٥؛ وقد أشار د . شبانه - رحمه الله - إلى ما كتبه المستشرق الفرنسي أ. بلاشير عن فاس في كتابات الجغرافيين العرب في العصور الوسطى ، وقد وقفت على ما كتبه أ. بلاشير في مقاله ضمن مجلة هسبيريس . انظر . محمد كمال شبانه : الدويلات الإسلامية في المغرب ، دراسة تاريخية حضارية ، القاهرة دون تاريخ ، ص ١٨ وحاشية رقم (١)؛
BLACHERE, R :FES CHEZ LES GEOGRAPHERS ARABES DU MOYEN-AGE.,
HESPERIS., TOME XVIII., 1434 PP 41- 48

(٢) انظر: عبدالواحد المراكشي: محبى الدين أبى محمد ت " ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م . المعجب في تلخيص أخبار العرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٤٣، ٤٤٤

(٣) ياقوت: معجم البلدان، مج ٤، ص ٢٣٠ .

(٤) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج ١٢، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨؛ ثمة آراء تشير إلى أن تأسيس مدينة فاس يرجع إلى إدريس بن عبدالله ، وهو إدريس الأول أول مؤسس لفاس، لا ابنه، ومثل هذه الخلافات لا تهم في دراستي كثيراً، ولعل المرجح أن إدريس الأكبر هو أول مؤسس للمدينة، ثم شرع ابنه " إدريس الأصغر" في بناء المدينة على النحو المذكور.=

وقد تحدث ابن أبي زرع في مطلع كتابه عن مدينة فاس؛ مشيرًا إلى أنها جمعت بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة الحرث وعظيم بركته... معدداً ما لها من بساتين ورياض وأسواق وعيون وأنهار وجنات^(١)، وهو وصف يشاركه فيه "الجزنائي" في حديثه عن مدينة فاس^(٢).

وليس هذا الوصف من قبيل النزعة التمجيدية التي قد يجدها الباحث في بعض كتب التاريخ المغربي، وقد يقول قائل: إن وصف المدينة على النحو المذكور، قد ينطبق على المدينة في ظل دولة بنى مرين في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي؛ إلا إن المدقق في طبيعة بناء المدينة منذ بدايتها يجد أنها لم تعدم هذه الصفات. فقد بنيت المدينة في أرض فسيحة معتدلة بين جبلين، ولم يكن الموضع الذى بُنيت فيه مهجوراً، بل كانت فيه مضارب لقبيلتين زناتيتين هما زواغة حول عدوة القرويين، وبنو يزغتن حول عدوة الأندلسيين^(٣).

وقد كان التفكير في بناء المدينة منصرفاً في البداية نحو سفح الجبل، ثم حدث أن أطاح سيل جارف بسور المدينة، وأخذ معه خيام العرب، وهو ما كان دافعاً للتفكير في بناء المدينة في المحاولة الثانية في منطقة "وادي سبو" وأن الإمام إدريس كان يخشى من فيضان النهر على فشل التجربة، كما إن الإمام جاء إلى مضارب القبيلتين، وأصلح ما كان بينهما من حروب ونزاعات، وهو ما يعنى أن المدينة لم تنشأ منعزلة عن قبائل البربر، ولم تكن بعيدة عنهم، هذا فضلاً على إنها جمعت بين القبائل العربية التي جاءت مع الإمام، وأهل ضاحية الربص من الأندلس، وهو ما يعطي مزية للعرب في بنائهم لمدينة فاس بما يؤدي إلى تعريب المدينة ونشر حضارة

= انظر: روجي لوطورنو: فاس قبل الحماية، ج ١، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، ص ٦٠.

(١) انظر: ابن أبي زرع: أبو الحسن على ت "٧٢٦هـ/١٢١٥م". الأنيس لمطرب بروض القرطاس. في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٣٣؛ وانظر في ذلك الوصف أيضاً "روجي لوطورنو: فاس قبل الحماية، ج ١، ص ٦٢.

(٢) انظر: الجزنائي: ابو الحسن على من أهل ق ٨/١٤م "جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٩٦٧. ص ٣٣-٣٩.

(٣) انظر: سعد زغول؛ المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٤٥.



الإسلام بها، وإنما أصبحت بمرور الوقت قيروانًا جديدًا للمغرب الأقصى، أسوة بما فعله عقبة بن نافع في بناء مدينة القيروان (١).

ويعني في هذا كله أن العقلية العربية كانت تدرك - أثناء بناء مدينة فاس - مخاطر البناء وما يحيط به من سيول أو فيضان، حتى استطاعت المدينة أن تجمع بين صفات خمس قال عنها الحكماء - طبقاً لما أورده صاحب الأنيس - أن أحسن مواضع المدن هي النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان (٢).

وفي هذا كله، وفيما جاء عن مياه نهر فاس وفضائله وما يتخلله من عيون (٣)، ما يدحض فكر ابن خلدون في حديثه عن بناء العرب للمدن، هذا فضلاً على أن مدينة فاس، وهي قاعدة بلاد المغرب، لم تزل منذ تأسيسها ... " دار فقه وعلم وصلاح ودين (٤) ". وهو ما يضيف بعداً آخرًا غفل عنه ابن خلدون وهو أن بناء المدن كان يتم تطبيقاً لتعاليم الإسلام وأن البناء كان بمثابة تكليف حضاري، وإذا ما تم البناء كانت الحاجة ماسة لنشر الإسلام وتعاليمه وعلومه في كافة جنبات المدينة؛ فيما يعنى أيضاً أن العقلية العربية لم تكن قاصرة على النحو الذي أراده لها ابن خلدون عفا الله تعالى عنه، وكان دعاء الإمام إدريس عندما عزم على بناء مدينة فاس تجسيداً لذلك التوجه الحضاري قائلاً في ذلك .. " اللهم اجعلها دار علم وفقه يُتلى فيها كتابك، وتقام بها سنتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها. " (٥).

(١) انظر: سعد زغلول: نفس المرجع، ج٢، ص ٤٤٤ - ٤٤٦؛ وثمة آراء تشير إلى عناصر

السكان الأولين للمدينة من أمثال: البربر والعرب، واليهود والنصارى

انظر: لوطورنو: فاس، ج١، ص ٦٨ - ٧٣، وهو ما يؤدي إلى نشر حضارة الإسلام بين

عناصر السكان في مدينة فاس من غير المسلمين

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس، ص ٣٣.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٤ - ٣٥.

(٤) ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص ٣٢.

(٥) الجزائى: جنى زهرة الآس، ص ٢٢؛ وهذا التوجه الحضاري - في رأبي - هو تنفيذ لتعاليم

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

مدن الفاطميين والصنهاجيين : -

أثرت أن يكون العنوان على هذا النحو تعبيراً عن آخر جزئيات الرؤية التطبيقية في فلسفة ابن خلدون، استناداً إلى أن بنى زيري - وبني حماد أبناء عمومتهم - ممن خلفوا الفاطميين بعد رحيلهم عن المغرب؛ كانوا من قبائل صنهاجة، كما أن " يوسف بن تاشفين " أمير المسلمين في دولة المرابطين ينتمي - هو وقبائل المرابطين - إلى صنهاجة، وهو الذي شهد عهده بناء مدينة مراكش .

أما عن فترة الفاطميين بالمغرب، فقد دام حكمهم من خلال أربعة خلفاء وهم : المهدي، القائم، المنصور، المعز لدين الله الذي توجه الى غزو مصر، وهي فترة يمكن تقديرها فيما بين سنوات ٢٩٧ إلى ٣٦٢هـ/ ٩٠٩ - ٩٧٣م^(١) وهي الفترة التي تمثل الدورة المغربية في تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، يبدأ بعدها عصر النيابة الفاطمية في المغرب^(٢) من خلال إسناد المعز لدين الله الفاطمي ولاية إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري وسماه يوسف بدلاً من بلكين، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة .

وامتدت هذه النيابة أيضاً إلى الدولة الحمادية من خلال عقد المنصور بن بلكين لأخيه حماد حكم المغرب الأوسط، وهي الدولة التي امتد عمرها إلى ما يقرب من قرن ونصف، تعاقب على الحكم خلالها تسعة أمراء، كان آخرهم الأمير يحيى بن العزيز الحمادي سنة " ٥٤٧ هـ / ١٥٢ م " ^(٣).

ثم أعقب ذلك - في إطار الفترة المبكرة من تاريخ دولة المرابطين - مجيء قبائل لمتونة إحدى قبائل صنهاجة التي ينتمي إليها المرابطون، وهم الذين آل أمرهم في نهاية الأمر - بعد عبدالله بن ياسين، ويحيى " عمر، وأبي بكر بن عمر - إلى يوسف بن تاشفين الذي قام بتأسيس مراكش كما سبق القول ^(٤) .

(١) انظر: لصاحب الدراسة تقديمه للظروف السياسية ضمن كتابه العلم والتعليم، ص ١٦ ، ١٧

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٨٤.

(٣) انظر: في الأحداث المذكورة . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ١٨٣، ٢٠٢ ص ١٨٣، ٢٠٢-٢١٠؛ عبدالحليم عويس : دولة بني حماد، ط ٢١ دار الصحوة، الوفاء ١٩٩١م. ص ١٠٩، ١١٢ - ١٦٣.

(٤) عن الأحداث الأولى لدولة المرابطين وارتباطها بالشخصيات المذكورة يمكن الرجوع إلى. البكري: كتاب المغرب، ص ١٦٤، ١٦٥؛ كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٩.

وقد رأيت أن تكون هذه المقدمة السياسية الموجزة ضرورية للحديث عن المدن التي تم إنشاؤها في عصر الفاطميين، والصنهاجيين من بنى زيري، وبنى حماد، وقبائل المرابطين على النحو التالي : -

المهدية : -

إحدى أهم المدن التي بُنيت في عهد الخليفة الفاطمي عبدالله المهدي، وإليه نسبت، وجاء في كتب الجغرافية والرحلات إنها بينها وبين القيروان ما يقدر بـ " ستين ميلا " ^(١). وقد أراد لها الخليفة المهدي أن تكون مدينة بحرية بعيدة عن الداخل، ووقع الاختيار على أن تكون في موقع شبه جزيرة يعرف بـ "جمة" فيما بين سوسة وصفاقس ^(٢)، وقد جاء في طبيعة شبه الجزيرة المذكورة إنها أشبه بكف متصلة بزند ^(٣)، وأن المياه تحيط بها شمالاً وجنوباً وشرقاً، وتتصل بالبر من جهة الغرب من حيث يكون الدخول إليها ^(٤).

وكان من أهم أهداف بناء مدينة المهديّة مواجهة أعداء الداخل ممن يهددون أمن الدولة الفاطمية، كما هو الحال فيما يسمى بالثورة الزناتية وخروج أبي يزيد مخلد بن كيداد على الفاطميين ^(٥)، هذا فضلاً على أن المالكية في إفريقية لم يرق لهم المذهب الشيعي، ولا العصمة التي جاء بها خلفاء الفاطميين ^(٦).

ومن هنا كان خروج عبيد الله المهدي يرتاد لنفسه موضعاً، فوقع اختياره على موضع المدينة التي شرع في بنائها سنة " ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م " وقيل سنة

(١) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٣١.

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) انظر: ياقوت : معجم البلدان ، مج ٥ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١.

(٤) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١١٧ ، ١١٨؛ سعد زغلول : المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٩٤؛ ولمزيد من أخبار أبي يزيد مخلد بن كيداد

اليفريقي الزناتي يمكن الرجوع إلى: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ، ج ١، ص ٢١٦ -

٢١٨.

(٦) رفض أهل إفريقية المساس بالمذهب السني المالكي، وأنكروا القداسة التي أراد الخلفاء الفاطميون

الفاطميون الظهور بها. انظر: مؤنس: تاريخ المغرب، مج ١، ج ١، ص ٤٧٨ .



"٣٠٣/هـ ٩١٥م" (١) وقد جعلها الخليفة الفاطمي داراً لمملكته، وحصنها بالسور المحكم، والأبواب الحديد، وجلب لها المياه من القرى المحيطة بها، وزودها بصهاريج المياه، وأمر بإقامة الدكاكين فيها، ورتب لها أرباب الحرف والمهن، وجعل لكل طائفة حي خاص بهم، وفي هذا كله ما يكشف عن فلسفة البناء عند العرب، ناهيك عن تحقيق هدفه في تحقيق الأمن للخلافة وآل بيته، وهو ما يفسر قوله عقب إتمام البناء.

"اليوم أمنت على الفاطميات" (٢)؛ وهو هدف لم يكن ضمن اهتمامات ابن خلدون في بيان أثر الظروف السياسية على بناء الحواضر والأمصار، ف جاء حديثه عن أسباب قلة الأمصار والمدن في المغرب العربي خالياً عن بيان ذلك الأثر، ووقع فيما عاب فيه على المؤرخين من التعميم .

كما كان من أهم أهداف بناء مدينة المهديّة هو أن تكون لها وجهة بحرية أيضاً، فكانت رباطاً فاطمياً يعيد إلى الأذهان - أكثر ما يعيد- بناء الشيخ الأمين لمدينة "تونس"، دونما إغفال لقيروان عقبه بن نافع (٣).

وكان من أهم أهداف تلك الوجهة البحرية لمدينة المهديّة إما إقامة علاقات اقتصادية تجارية مع العالم الخارجي فيما وراء البحار، وإما القيام بدورها الجهادي على المستوى الرسمي والشعبي ضد الدولة البيزنطية في حوض البحر المتوسط، باعتبار أن منطقة السواحل تعد منطقة ثغور في المقام الأول (٤).

(١) اختلفت الآراء حول سنة البناء كالعادة، ولعل المرجح لي أن البناء كان سنة ٣٠٠م/٩١٢م وتم الانتهاء منه سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م وهو ما أدقق فيه مع أ. د مؤنس رحمه الله . انظر: حسين مؤنس : تاريخ المغرب، مج ١/ ج ١، ص ٤٨٥.

(٢) انظر: ياقوت: معجم، ج ٥، ص ٢٢٩ - ٢٣١؛ الحميري : كتاب الروض، ص ٥٦١، ٥٦٢؛ التجاني: أبو عبدالله محمد. توفي بعد سنة "٧٠٨هـ/١٣٠٨م" رحلة التجاني، تقديم وتحقيق: حسن حسنى عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) ١٩٨١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١.

(٣) ذهب أ. د سعد زغلول - رحمه الله تعالى - إلى أن المهديّة تُدكّر بالقيروان، واجتهدت في التوضيح إنها تذكر، بـ "تونس" دونما إغفال للقيروان ، انظر: سعد زغلول : تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٩٥؛ والشيخ الأمين لقب لـ "حسان بن النعمان" ورد ذكره في بعض الكتب المتأخرة. انظر: مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٢٣٦.

(٤) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٩٤؛ وقد أفاض الإدريسي في بيان الجزئية المذكورة، مشيراً إلى أن المهديّة "مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن الجهازية القاصدة إليها من بلاد الشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد .. وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال ... انظر. الإدريسي: وصف ، ص ٧٨.

ولعل من أهم الجوانب التي تكشف مدى تناقض ابن خلدون مع نفسه فيما يذكره عن البناء وفيما سبق ذكره، وفيما يقوله عن عناية الفاطميين بالأساطيل إلى أن انتهى الأمر بغلبة المسلمين على سواحل البحر المتوسط حتى لم تعد ... "تسيح للنصرانية فيه ألواح" على حد قول ابن خلدون^(١). ومن المعروف أن الخليفة عبدالله المهدي قد بني بالمهدية داراً لصناعة السفن، وهو ما يشهد عليه قول ابن حماد: "وبنى داراً للصناعة الموجودة فيها إلى اليوم"^(٢) وفي هذا كله ما يشير إلى أن البناء عند المسلمين لم يكن ارتجالاً أو اعتباطاً في أغلبه، بل كان يسير وفقاً لخطة منظمة في بعضه أو كثير منه على الأقل، ووفقاً لمقتضيات الأوضاع السياسية للدولة.

كما إن في الحديث عن إحاطة المدينة بأبواب الحديد، وتسويرها وبناء صهارج المياه بها، وتنظيم أهل الحرف في أحيائها؛ ما يدل على تقدم فنون الصناعات في بلاد المغرب العربي، وإن لم يكن هذا على يد أبناء البلاد، فمن الطبيعي أن يكون على يد من جلبهم الفاطميون إلى البلاد ممن يجيدون الحرف والصناعات، وهذا يدل على أن حديث ابن خلدون عن عدم انتحال العرب للصناعة قد يكون في بداية أمرهم، وانشغالهم بالفتوحات الإسلامية، وأنهم تقدموا - فيما بعد - في الحرف والصناعات بفضل تعلمهم، واختلاطهم بمن يجيدون هذه المهن، والأمر نفسه ينطبق على البربر، فالنزوع إلى التعلم طبيعة متأصلة في النفس البشرية، استناداً إلى قول ابن خلدون أن الإنسان مدني بطبعه^(٣).

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، ص ٢٦٨، وقد أشار ابن خلدون إلى أن سفن الفاطميين كانت تغزو من المهديّة جزيرة جنوة، وتتقلب بالظفر والغنيمة. انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر، مج ١، ص ٢٦٧.

(٢) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ١٠؛ وبعض كتب الرحلات المتأخرة نسبياً تتحدث عن دار الصناعة التي أنشأها المهدي بما يشير إلى إنها "من عجائب الدنيا" التجاني: رحلة التجاني، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٣) انظر: ابن خلدون: مقدمة ص ٤١؛ وجاء في موضع آخر تحت عنوان "في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري" وتحت عنوان "في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع" انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر، مج ١، ص ٤٦٠، ٤٦١؛ وقد نظرت إلى الصنائع هنا على إنها من جملة العلوم، وأن هناك إمكانية لنقلها من جبل إلى جبل، وهو ما يعني أن النزوع إلى تعلم الصنعة، أو تعلم العلم والتعليم من الأمور الفطرية التي جبلت =

المسيلة :

من بلاد الزاب بالمغرب^(١)، أورد البكري عنها إنها مدينة جليلة على نهر يسمى سهر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عيد الله سنة " ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م، مشيراً إلى المتولي لبنائها كان " على بن حمدون الأندلسي " ^(٢)؛ وهي التي تسمى في كتابات أخرى باسم المحمدية، على اختلاف في سنة بنائها لا تهتم به الدراسة^(٣) وقد جاء عن المدينة نفسها إنها " في بسيط من الأرض، عليها سوران، بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة، وله منافذ يسعى منها عند الحاجة، وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة " ^(٤).

كما تحدث عنها صاحب الاستبصار قائلاً عنها .. " وهي الآن عامرة أهلة، كثيرة الخصب، رخيصة السعر " ؛ مشيراً إلى كثرة الأسواق والمتاجر بها بما يدل على أن من أمر ببناء المدينة كان ذا نظر وعقل^(٥)، ويرجح ذلك ما أورده الحميري من كثرة النخيل والبساتين، وجداول المياه العذبة بالمدينة، فضلاً على التفاف قبائل البربر حولها، بما يشير إلى من أمر ببنائها كان ... " على نظر كبير^(٦) " طبقاً لما سبق استقرائه .

كما أورد أن حماد عن مدينة المسيلة ما يشير إلى إنها بلغت الغاية القصوى في العمارة والحضارة على عهد على بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى، هذا فضلاً عما يمكن استقراؤه عن المدينة في حديثة عنها بما يرجح أنها كانت أشبه بمخزون

=عليها النفس البشرية، وهو ما يعنى أيضا أن حديث ابن خلدون عن عدم انتحال العرب أو البربر للصنائع ليس دقيقاً .

(١) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨؛ وفي تفسير بلاد الزاب يمكن الرجوع إلى . كاتب مراكشي: الاستبصار ، ص ١٧١.

(٢) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٥٩، ويبدو لي أنها بُنيت على يد القائم أبي القاسم ثاني خلفاء الفاطميين بالمغرب وكان ولياً لعهد أبيه، ويمكن الرجوع في هذا الشأن الى جدول خلفاء الفاطميين بالمغرب وتوقيت حكمهم . انظر: مؤنس: تاريخ المغرب، مج ١، ج ١، ص ٤٤٨.

(٣) انظر: ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد، ص ١٢ ، ١٣

(٤) البكري: كتاب المغرب، ص ٥٩.

(٥) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٧١ ، ١٧٢.

(٦) الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨.

استراتيجي للدولة الفاطمية، وإنما كانت تمد البلاد بما تحتاجه من سلع ومواد غذائية؛ إذ ما نقصت كمية المطر، وفي حالة سوء الحالة السياسية باشتداد فتنة أو ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد وخروجه على دولة الفاطميين بالمغرب. (١)

كما أورد الإدريسي عن مدينة المسيلة ما يشير إلى تعدد قبائل البربر حولها، بما يرجح وجود حالة من التعايش السلمى بين كافة عناصر السكان في المغرب العربي، يمكنها أن تؤدي إلى تعريب البلاد، وانتشار الإسلام والثقافة العربية بين كافة الأجناس (٢) وهو الأمر الذي ازداد رسوخاً مع وجود الهجمة الهلالية إلى إفريقية والمغرب. (٣)

وفي هذا كله ما يدحض فكرة ابن خلدون عن طبيعة وعشوائية البناء عند العرب، هذا فضلاً على ما كان من إجماع حول طبيعة مدينة المسيلة، وإنما كانت عامرة بالتجار، والمزارع من أنواع شتى، فضلاً على تعدد الثروة الحيوانية، ووجود الأسماك بها (٤) بما يدل على بعد نظر من أمر ببناء المدينة طبقاً لما سبق قوله، وفي هذا كله ما يدحض أقوال ابن خلدون عن طبيعة البناء عند العرب، فقد كانت المدينة تشبه ما يسمى الآن بـ "ظهير الميناء" في إمداداتها بما تحتاجه البلاد من حولها، خاصة في أوقات التأزم السياسي، وسوء أحوال البلاد، دون الدخول في تفاصيل بناء المدينة وأبوابها... وغير ذلك من جوانب يمكن أن تهتم بها الدراسات الأثرية (٥)، فما يهم هنا هو بيان رؤية ابن خلدون، ومدى تطابقها مع الواقع التاريخي.

(١) انظر: ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ١٢-١٣.

(٢) انظر: الإدريسي: وصف إفريقية، ص ٥٩.

(٣) ثمة آراء تشير إلى أن الحضارة الإسلامية في المغرب عاشت مرحلة التكوين في ظل أحداث الفتح، ثم مرحلة الازدهار في ق "٩/٥٣م"، ثم مرحلة الذروة في ق ١١/٥٥م مع دخول الهلالية إلى بلاد المغرب، وكان ذلك بمثابة الفتح العربي الثاني، وفي ذكر الآراء المذكورة يمكن الرجوع إلى: عادل يحيى: انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقية...، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، مج ٥٢، القاهرة ٢٠١٨ ص ١٨٢، ١٨٣ وحاشية رقم (١) في ص ١٨٢، ١٨٣، وهذا يعني أن إقامة المدن كانت له فلسفته الدينية

(٤) انظر: الحميري: الروض، ص ٥٥٨.

(٥) ما ورد قوله أو ذكره هنا هو استقراء يعبر عن رأى الباحث، وأفضى إلى به اجتهادي.

مدينة صبرة "المنصورية": -

تنسب مدينة المنصورية إلى المنصور الفاطمي؛ وهو أبو العباس إسماعيل بن أبي القاسم، طبقاً لما ذكر اسمه ابن حماد في أخبار ملوك بني عبيد؛ مشيراً إلى أن المنصور بنى تلك المدينة سنة "٣٣٤هـ/٩٤٥م" واستمر عليها الاسمان صبرة أو المنصورية إلى الآن، وصبرة أشهر^(١).

وقد أوضح ابن حماد في حديثه عن المدينة أن المنصور هو من أمر ببناء سورها بالطوابي، وجعل لها أربعة أبواب، بيد أن ما بهم رؤيتي هنا إنه نصّب عليها أبواباً ملبسة بالحديد وإنه بنى بها القصور الشامخات، وجلب إليها الغرس البديعة، والمياه المنيعة، معدداً ما كان بها من قصور، ومختتماً حديثه عنها بما أنشأه المنصور بالمدينة من مصانع... "صنيعة كبيرة"^(٢) على حد قوله.

ويبدو أن الأمر قد اختلط على ياقوت في معجمه عند حديثه عن المدينة المذكورة، فنسبها إلى "مناد بن بلكين"، ثم عاد في نهاية حديثه مشيراً إلى ما قاله البكري عن صبرة إنها مدينة متصلة بالقيروان بناها إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله سنة "٣٣٧هـ/٩٤٨م"^(٣) على اختلاف لما سبق ذكره من خلال ابن حماد في أخباره، وهي إحدى صعوبات الحديث عن المدن كما سبق القول، ويختم ياقوت حديثه

(١) انظر: ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ٢٣

(٢) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٤؛ كما تحدث المؤرخ والأثري التونسي الأستاذ زبيد عن صبرة أو المنصورية تفصيلاً في إحدى مقالاته:

CF. ZBISS, S. MOSTFA: MAHDIA ET SABRA - MANSORIYA., JOURNAL ASIATIQUE., TOM CCXLIV., ANNÉE 1956 PP. 84-92

(٣) انظر: ياقوت: معجم، ج ٣، ص ٣٩١؛ ومناد بن بليكن لعله من ينتمي إلى بني مناد أهم ممثلي صنهاجة إفريقية أواخر ق ٩هـ/٩م، وأوائل ق ١٠هـ/١٠م، ومن المعروف أن المعز اسند ولاية أفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري بن مناد، وسماه يوسف بدلاً من بلكين، فهل يكون مناد المذكور هنا هو جد بلكين أو ابن بلكين، فيكون اسمه مناد بن بلكين بن زيري بن مناد؟! . انظر في هذا الشأن ما قاله أ.د. سعد زغلول عن بعض التشابه وبني مناد، وبني زيري. انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٩٢، ٢٩٣ والمرجح لي أنه ابنه .

عن المنصورية قائلاً إن المنصور قد استوطنها ... "وخلا أكثر أرض مدينة المهديّة"^(١).

وقد اختار المنصور لمدينته الضاحية الجنوبية على بعد نصف ميل من القيروان في مقابل رقادة الشمالية، وذلك عندما لاحقت تباشير نصره على أبي يزيد، ولعل هذا ما كان دافعاً إلى وصف المدينة بأنها تعبر عن النصر والفتح الإيجابي الذي شهده عهد المنصور، خلافاً لما كان من عهد الدفاع والصمود في الفكر الشيعي من خلال مدينة المهديّة^(٢).

وقد عهد المنصور إلى " قدام الخادم الصقلابي" بالبناء، وأمره ألا يتراخي فيه، وجعله والياً عليها، وتدل التقنيات الأثرية في خرائب صبرة - أو المنصورة - على وجود بقايا من الحجر والرخام المنقوشين والزجاج الملون، وبقايا الرصف، وقوالب من الطوب، وطبقات من الجص^(٣)، وفي ذلك ما يرجح مدى تقدم الصناعات والفنون في عهد الفاطميين القصير بالمغرب، ناهيك عن تنظيم المدن وما كان يستجبه من إنشاء المسجد الجامع، وتنظيم الأحياء السكنية والأسواق^(٤)؛ فيما يرجح أن بناء المدن كان يسير وفقاً لخطة ونظام متقن، كما إن الاستعانة بالخادم الصقلابي في البناء يرجح مدى مهارة الصقالبة في أعمال البناء والصناعات^(٥)، وهذا يعيدني إلى ما

(١) ياقوت: معجم، ج ٣، ص ٣٩١، ٣٩٢؛ ويجعل ابن عذارى تاريخ إنشاء المدينة سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م وذلك أثناء حديثه عنها. انظر: ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٠١.

(٣) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ وانظر عن مدينة صبرة (المنصورية) وتنظيمها وبنائها وسورها وجلب المياه إليها. ابن حماد: أخبار، ص ٢٣، ٢٤، كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١١٥؛ الحميري: الروض ص ٣٥٤.

(٤) أشار ابن عذارى باقتضاب إلى عدد أبواب المدينة، وأن المنصور نقل إليها، أي إلى صبرة سوقة القيروان. انظر: ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٢١٩.

(٥) من المعروف أن صقلية كان من توابع دولة بني الأغلب، وأن الفاطميين حرصوا على بسط نفوذهم على صقلية، ومع بداية عهد أبي عبيد الله الشيعي تم جعل الحسن بن محمد بن أبي خنزير والياً عليها، وما يهم من هذا كله أن الفاطميين استعانوا بالصقالبة في بناء المدن.

عن الفاطميين وصقلية. انظر: حسين مؤنس: تاريخ المغرب، مج ١، ج ١، ص ٥٣٩-٥٥٠، أما الخادم الصقلابي المذكور في متن البحث، فإنه يشير إلى مصطلح الصقالبة وهم أشهر أنواع الرقيق الأبيض، وكلمة صقلب معناها عبد أو رقيق، فيما يعني إن هؤلاء العبيد كانوا=

سبق قوله عن دحض آراء ابن خلدون في حديثه عن طبيعة البناء في المغرب العربي، بما لا حاجة إلى تكراره.

مدينة أشير:-

ذكر الأستاذ العربي في حديثه عن عواصم بني زيري أن أشير بُنيت على قمة جبل يبلغ ارتفاعها حوالي ١٤٠٠ متر عن مستوى سطح البحر، وأن هذه المدينة تشرف على سهول التلال الغربية، ومنطقة بلاد القبائل الشرقية، وإنها مدينة ذات موقع منيع، ليس في تلك الأقطار أحصن منها على حد قول البكري^(١).
وقد أورد ياقوت في معجمه أن زيري بن مناد الصناجي هو أول من عمّر مدينة أشير، وأنه شرع في بنائها في سنة " ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م " وأنه اختار لها موضعًا خاليًا، ليس به أحد، مع كثرة عيونه، وسعة فضائه وحسن منظره، وإنها جاء بالبنائين من المدن التي حولها وهي: المسيلة وطبنة وغيرهما، وأورد البكري أيضًا أن الذي سورها، أو بني سورها هو بلكين يوسف بن زيري سنة " ٣٣٧ هـ / ٩٣٨ م "، وخرّبها يوسف بن حماد بن زيري سنة " ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م "^(٢).

=يجيدون القيام بأعمال البناء والإشراف عليه، ومن الطبيعي أن يتعلم منهم أهل البلاد أو الوافدين عليهم، وقد ذكر ابن حوقل الصقالبة على أنهم الخدم من سبي إفرنجة وجيليفية، وكانت تطلق على الأسرى والحصيان، ثم أصبحت تطلق على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وقصور الحكم. انظر: ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي ت " ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م " كتاب صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت دون تاريخ ص ١٠٥، ١٠٦؛ أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا، مدريد ١٩٥٣ ص ٧-١١؛ وقد جاء في سيرة الأستاذ جوذر ما يشير إلى استخدام مجموعة من الخدام الصقالبة في بلاط الفاطميين، ومنهم قيصر ومظفر...، وذلك من خلال رسالة الخليفة المنصور الفاطمي. انظر: العزيري: أبو علي منصور، كاتب جوذر خادم المهدي، توفي أيام الحاكم بأمر الله. سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، محمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٤ ص ٤١؛ كما جاء في الكتاب نفسه ما يشير إلى تقدم صناعة السيوف في عهد المنصور ذاته، وأنه أمر بصناعة سيوف خاصة بالمهدية، انظر: ص ١٥٩ من سيرة الأستاذ جوذر ضمن التعليقات، تعليق رقم ٤٠.

(١) انظر: اسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ط ١ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤. ص ١٥
(٢) انظر: ياقوت: معجم، مج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ وهو نفس ما ذكره البكري في حديثه عن مدينة "أشير" ص ٦٠ من كتاب المغرب، وربما كان من نقولات ياقوت عنه؛ وعرفت المدينة =

وبغض النظر عن تفاصيل الصراع بين بني زيري وأبناء عمومتهم بني حماد^(١)؛ إلا إن ما بهم هنا هو أن زيري بن مناد قد شرع في جلب البنائين من مدن شتى في المغرب العربي لبناء مدينة أشير، بما يشير إلى صدق ما ذهب إلىه أن مهنة البناء كانت تجد من يعمل بها، سواء أكان من الوافدين ممن استعان بهم الفاطميون، أو من أهل البلاد ممن تعلموا هذه الحرف والصناعات بالاختلاط والاحتكاك، وأن البربر من صنهاجة بني زيري كانوا على درجة عالية من إتقان البناء وإحكامه وحصانته .

القلعة، عاصمة بني حماد الأولى : -

هي عاصمة بني حماد الأولى طبقاً لما جاء التعريف بها ضمن عواصم بني زيري، وقد أثنى عليها الإدريسي معدداً ما بها من قصور ومفاخر وخيرات وفواكه، مشيداً بموقعها .. "في سناد جبل سامى العلو" صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع الجبل، ويسمى تاقرست^(٢) .

وقلعة بني حماد هي نفسها قلعة أبى طويل، وإنها بنيت في سنة "٣٩٨هـ/١٠٠٧م" على سفح الجبل المذكور سابقاً^(٣)؛ بما يشير إلى التفرد في البناء، فالبناء على سفوح الجبال أمر لا يقبل عليه إلا من أصبحت له الدراية والخبرة بأعمال البناء، فضلاً على ما أسهب فيه صاحب الاستبصار من عجائب البناء والصناعة في قلعة (حماد بن مناد) من خلال حديثه عن القصور المنيعة، متقنة الصناعة، عالية البناء، وما كان من المدينة من " صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد ... " ^(٤)

=في بعض كتابات أخرى بأشير زيري نسبة إلى بانيها. انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٧٠؛ الحميري: الروض، ص ٦٠.

(١) عن تفاصيل الصراع السياسي وخروج حماد بن زيري على باديس بن يوسف المنصور يمكن الرجوع إلى. ابن خلدون: تاريخ، مج ٦، ص ٢٠٢ .

(٢) الإدريسي: وصف إفريقيا، ص ٥٩ .

(٣) انظر: إسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ص ٢٨ .

(٤) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٦٨؛ وقد تحدث عنها كل من البكري وياقوت قائلين عنها... "وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق ومصر والشام، وسائر بلاد =

ومما يدل على تقدم الصناعة بقلعة بني حماد ما أورده صاحب الاستبصار أيضاً في قوله .. " وتصنع بمدينة قلعة حماه أكسية ليس لها مثل في الجودة والرقّة ... " وتضيف كتابات نفر من المؤرخين المحثين أن حماداً عندما اختار موقع المدينة قصد إلى المسيلة وسوق حمزة، وأخذ من المدينتين ما يحتاج إليه من الصنائع والبنائين والنجارين وغير ذلك من ينتمون إلى مختلف الحرف، ثم شرع في البناء الذي استغرق العمل فيه نحو ثلاث سنوات " (١)

وبناقض ابن خلدون نفسه بين ما ذهب إليه في مقدمته وما بها من قوانين خلدونية، أو ما يسمى بلغة العلوم الإنسانية " التعميمات "، وبين ما يقوله في كتابه العبر عن اتساع العمارة والتمدن في مدينة قلعة بني حماد حتى إنه رحل إليها .. " من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم، وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها " (٢). فهذا التوسع والتبحر في العمارة والتمدن ما كان ليتم عند البربر بمعزل عن العرب الذي يأخذ عليهم استكفاهم عن العمل بالصناعة، وقياساً على ما قاله ابن خلدون، فالبربر أشبه الناس بالعرب، وهو في هذا كله يخالف الحقيقة، هذا فضلاً على ما قاله عن المغلوب المولع بتقليد الغالب (٣)، وهو لا يعطي للغالب حقه، فكيف ينصف المغلوب؟! وكلاهما - العرب أم البربر، الغالب والمغلوب - قد أنعم الله تعالى عليهما بحضارة تحث على العمل والتمدن، وما يجد المرء المسلم في تطبيقاتها عناء "

=المغرب .. " انظر: البكري: كتاب المغرب، ٥ ص ٤٩؛ ياقوت: معجم، مج ٤ ص ٣٨٩ - ٣٩٠

(١) انظر: إسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ص ٣٢؛ وسوق حمزة هي ما يسمى " البويرة حالياً " وهي من مدن الجزائر الآن، أو المغرب الأوسط قديماً، وقد جاء التعريف بها ضمن تقديم الأستاذ العربي لكتابه. انظر: إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص ٦ ضمن تقديمه لكتابه، وورد ذكر سوق حمزة عند ابن خلدون " أهل حمزة " انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٠٢ .

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٠٢
(٣) أورد ابن خلدون ذلك تحت عنوان " في أن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعارة وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده ". انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، ص ١٥٥، وهو الفصل (٢٣) من مقدمته ص ١٤٧ - ١٤٨ .

بجاية :

يذكر عنها الإدريسي إنها مدينة على البحر، يحدها من جهة الشمال جبل مسيون؛ وهو جبل سامي العلو، صعب المرتقى، وفي هذا ما يعني أن مدينة بجاية (مدينة ساحلية). وقد تحدث عنها الإدريسي في عصره قائلاً في ذلك الشأن " ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد " مشيراً في هذا إلى حركة التجارة بين أهل المدينة وبين تجار المغرب الأقصى " وتجار الصحراء والمشرق، وما يتبع ذلك من كثرة قوافلها وتعدد الصناعات والصنائع بها، ووجود دار لصناعة الأساطيل والسفن والمراكب بها لتوافر الأخشاب في أوديتها " (١) .

ومما يدل على تقدم الصناعات في مدينة بجاية ما كان يتوفر في جبالها من ... "الزفت والقطران والمعادن " التي تستخدم في شتى الصناعات، حتى إنه يقول إن بها "من الصناعات كل غريبة ولطيفة" (٢) على حد قول الإدريسي.

كانت بجاية عبارة عن ميناء قديم فقط، ثم بُنيت المدينة، وكان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة "٤٥٧هـ/١٠٦٤م" وتسمى أيضاً بالناصرية نسبة إلى بانيها، وقد وصفها ياقوت بأنها دار مملكة تركب فيها السفن، وتسافر إلى جميع الجهات (٣)؛ وهو ما يشير إلى ازدهار حركة التجارة والصناعة بها في العصر الحمادي، طبقاً لما أفاض فيه الأستاذ

(١) انظر: الإدريسي: وصف أفريقيا، ص ٦٢، ٦٣ .

(٢) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٦٣ .

(٣) انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج ١، ص ٢٣٩؛ وقد جاء عن بجاية في كتابات متأخرة إنها من تأسيس الفينقيين، أو الرومان، على اختلاف في ذلك الشأن، وهو ما يخرج عن نطاق دراستي، إذ أنني لا أبحث في الأصول القديمة للمدن، المهم أن الناصر الحمادي هو من جدها ودعاها الناصرية، ثم سميت بجاية باسم قبيلة بريرية تقطن حولها . انظر: ليون الإفريقي: الحسن بن محمد الوزان الفاسي توفي بعد عام " ٩٥٧هـ/١٠٥٥م " وصف إفريقيا، ج ٢، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط ٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص ٥٠؛ وحاشية رقم (١) من نفس الصفحة، وكالعادة هناك اختلاف في تاريخ تجديد المدينة أو نشأتها على يد الناصر الحمادي عما في متن دراستي، والمرجح ما جاء في المتن.

العربي في حديثه عن المدينة^(١)؛ بما يشير إلى أن ابن خلدون لم يكن صائبًا في نظريته عن البناء والمدن في بلاد المغرب العربي سواء أكانت من بناء العرب أم البربر، فقد كانت بجاية مدينة تتقدم فيها كافة الصناعات والأنشطة التجارية، وفي ذلك ما يدل على أن حركة البناء للمدن والأمصار في بلاد المغرب العربي لم تكن عشوائية كما أرادها ابن خلدون، بغض النظر عن طبيعة الصراع بين بني زيري وبين حماد أبناء عمومتهم وأثر ذلك على بناء المدينة، أو ما يفعله قبائل الهلالية عندما جعلوا من القلعة حسمًا هامدًا، فكان ولا بد من التفكير في بناء "بجاية" كعاصمة جديدة.^(٢)

مراكش :

أسسها يوسف بن تاشفين سنة "٤٥٩هـ/١٠٦٦م" وهي حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها، وهي مدينة عظيمة في بسيط من الأراضي، ويذهب صاحب الاستبصار إلى أن يوسف بن تاشفين بناها لزوجته زينب بنت إبراهيم النفزراوي^(٣)؛ ويأتي ذلك خلافاً لما قال به الإدريسي أن يوسف بن تاشفين اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال، واختطها له ولبنى عمه، وإنها مدينة في وطأة من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمى "إيجليز"، مشيراً إلى أن ذلك الجبل قد استخدم منه "قطع الحجر" الذي بنى من خلاله قصر أمير المسلمين "علي بن يوسف بن تاشفين"^(٤).

(١) انظر: العربي: عواصم ص ٥٧، ٦٤؛ ومن الكتابات المتأخرة التي وصفت قصور بجاية، وطبيعة العمران بها، ما جاء به مارمول كريخال في وصف أفريقيا. انظر: مارمول كريخال: من رحالة ق ١٠٦/هـ، إفريقيا، ج ٢، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط ١٩٨٩ ص ٣٧٦.

(٢) عن دور قبائل الهلالية في تخريب القلعة، والتفكير في بناء بجاية يمكن الرجوع إلى: إسماعيل العربي: عواصم، ص ٥٥.

(٣) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٩.

(٤) الإدريسي: وصف أفريقيا، ص ٤٣؛ وانظر: عن مراكش أيضاً ياقوت: معجم، مج ٥، ص ٩٤؛ وأغمات مدنيتان إحداهما تسمى "أغمات وريكة" والأخرى أغمات هيلانة، وقد جاء التعريف بهما عند الإدريسي وغيره. انظر: الإدريسي: وصف، ص ٤٥، الحميري: الروض، ص ٤٦ وغير ذلك كثير.

وقد تم بناء المدينة بالطين والطوب والطواحي المقامة من التراب المستخدم من خلال جبل إيجيلز حسبما يفهم من سياق حديث الإدريسي عنها، مشيراً إلى أن ماءها الذي يسقى به البساتين قد استخرج بصنعة هندسية حسنة قام بها " عبيد الله بن يونس"، وهو الذي جاء إلى مراكش في صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد، ثم قام بحفر بئر مربعة كبيرة التريبع، واحتفر من خلال ذلك البئر ساقية متصلة الحفر من أسفل إلى أعلى حتى وصل إلى البستان، وكثرت البساتين والجنان وعندما سار الناس على نهج "عبيد الله بن يونس" وهو ما كان سبباً في ازدياد عمارة مراكش واتساعها، وقد ترتب على ذلك أن استحسّن أمير المسلمين ما فعله الرجل حتى أغدق عليه وأعطاه ... "مالاً وأثواباً وأكرم مثواه" (١)

وفي هذا، ما يشير إلى أن العقلية المغربية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام تحديات البيئة، فاستخدمت من الجبال مواداً للبناء، ولم تتعدم فيهم الرؤى الهندسية، كما لم تتعدم في المغاربة الاستجابة لتحديات البيئة كما سبق القول. وجميع هذه الجوانب لم يدركها ابن خلدون جيداً إن لم يكن قد أغفلها، فكان حديثه عن البناء وأسباب قلة المدن في المغرب العربي لا يتفق مع مدى تأثير الحضارة الإسلامية على الشخصية الإسلامية - سواء أكانت من العرب أم البربر - فيما أبدعوا فيه من بناءات.

(١) الإدريسي: وصف إفريقيا، ص ٤٤؛ وجاء عن مدينة مراكش في بعض كتب الرحالة المتأخرين بأنها مدينة عظيمة ... تقع في أحسن موقع بإفريقيا كلها... انظر: مارمول كربخال: إفريقيا، ج ٢، ص ٤٦ - ٤٧ .

خلاصة الرؤية التطبيقية

"تقييم، تحليل، تعليق، نقد ... وكلمة ختام"

بالحديث عن مدينة مراكش، أكون قد انتهيت من آخر مدن الرؤية التطبيقية في دراستي هذه، وبطيب لي أن أذكر في هذا المقام ما أشار إليه أ. د محمود إسماعيل في قوله إنه لا يزال منهج ابن خلدون ورؤيته للتاريخ عمومًا، وتاريخ المغرب الإسلامي بوجه خاص أكثر قبولًا، بالقياس إلى من سبقه، وحتى من لحقه من المهتمين بالمغربيات إلى الوقت الحاضر^(١)؛ بيد إن هذا لا يمنع من إعمال العقل فيما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، وأسباب قتلها، وهو حديث يساوي فيه بين العرب والبربر على حد سواء، ويمكن تنفيذ آرائه وبيان أخطائه على النحو التالي:-

أولاً: أن ابن خلدون قلما ينصف العرب في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، كماة هو الحال في حديثه عن اقتصار الشعوب التي حكمت بلاد المغرب - قبل الفتح الإسلامي - على السواحل فقط، فيما يعد من مميزات العرب التوغل في الدواخل، وهو مما سبق الإشارة إليه في ثنايا الحديث عن المدن.

ثانيًا: في إطار حديث ابن خلدون عن أسباب قلة المدن في المغرب العربي يشير إلى عدم انتحال العرب والبربر للصناعة على حد سواء، ويغفل أثر احتكاك العرب بالأمم السابقة، وعلى حد قول أ.د. طه حسين لم يقدر ابن خلدون التأثير الذي تحدثه العلائق بين الأمم المختلفة^(٢) سواء أكان ذلك في الغالب أم المغلوب، فعلى أرض المغرب ظهرت وتعايشت أنماط مختلفة في بوتقة واحدة يأتي في مقدمتهم: العرب، البربر، الأقباط، اليهود، وعناصر فارسية أيضًا.

ثالثًا: يبدو أن ابن خلدون متناقضًا مع نفسه، فهو يعترف باستخدام العرب لأمة الفرس، وأن العرب بسبب احتكاكهم بالفرس قد شيدوا المباني والمصانع، واختلفت

(١) انظر: محمود إسماعيل: مغربيات، ص ٥.

(٢) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمة: محمد عبدالله عنان، ط ١،

مطبعة الاعتماد القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م. ص ١٠٤.

أحوالهم في البناء عما كان سابقاً، ومع ذلك يغفل ابن خلدون أثر ذلك الاحتكاك على أرض المغرب .

رابعاً : أن حديث ابن خلدون عن الأمصار والمدن في المغرب العربي يدفعه إلى وصف العرب بأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، وإنهم لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب؛ وهو في هذا الشأن يستند إلى تخريب إفريقية على يد قبائل بني هلال وبني سليم، متناسياً أن تلك القبائل هم قبائل من البدو والأعراب، ولم يتلقوا تربيةً ولا نظاماً، وإنهم فعلوا ذلك تنفيذاً لأوامر الخليفة الفاطمي في مصر الذي أراد أن ينتقم من أسرة بربرية كانت خاضعة له، ثم غدت خصماً له، كما إنه يتناسى موجات الفتح الإسلامي في فارس والشام ومصر والأندلس، وفي كافة جهات المغرب العربي، وأن تلك المناطق لم يتم تخريبها، كما أن وصايا الخلفاء والحكام لقادة الفتوحات كانت تحث على وجوب معاملة المغلوبين أحسن معاملة، وهو ماتناساه ابن خلدون (١) .

خامساً : إن مسلك ابن خلدون في غمطه للعرب في إطار حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي إنما مرده إلى أثر الأمة الفارسية في تشويه العرب وتحقير آدابهم فيما يسمى بالشعبوية، فضلاً على الاستعانة بعناصر أخرى من غير العرب من الفرس والأتراك في ظل الدولة العباسية، وهو مما أعاد العرب إلى حياتهم البدوية الأولى، وابتعدوا عن أن يكون لهم تمثيل في شئون المسلمين السياسية، وأن جزءاً من حملة الرجل على العرب إنما مرده أيضاً إلى أن ابن خلدون عاش في ظل الأسر البربرية المجاهرة بعداؤها للعرب، الذين خربوا إفريقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وفي الحقيقة هم قبائل من البدو والأعراب كما سبق القول (٢) .

سادساً : لعل أهم ما أفضى إلى به اجتهادي هنا هو أن ابن خلدون قد وقع في بعض الأخطاء التي عابها على بعض المؤرخين؛ فتشيع لمذهبه وفلسفته وما يؤمن به؛ وأغفل عن الهدف من الحضارة الإسلامية (٣) الوافدة إلى البيئة المغربية، وفي كل

(١) انظر: طه حسين : فلسفة ابن خلدون ، ص ١٠٢ .

(٢) انظر: طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٣) تعرض ابن خلدون في مقدمته إلى ذكر بعض الأخطاء التي يقع فيها المؤرخون، وذكر شيئاً من أسبابها، ولعل من أهم أسباب الوقوع في الخطأ، وفيما قاله ابن خلدون ويفيد في رؤيتي هذه، =

بيئة جديد يمكن أن تحل بها، فتحولها إلى بيئة إسلامية (أو عربية إسلامية). وفي هذا ما يدفع إلى القول بأن العرب "شادوا وعمروا" أينما رحلوا، وأينما حلوا تنفيذاً لتوجيهات حضارتهم، وتنفيذاً للتكليف القرآني في قوله سبحانه وتعالى " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"^(١) وفي ذلك ما يعني أيضاً أن ابن خلدون لم يكن محققاً في غمطه للعرب، وإنهم نجحوا في السواحل كما نجحوا في البسائط والدواخل، وإنهم ليسوا أهل سلب وانتهاج كما وصفهم، كما أن بعض المدن التي بُنيت على أيدي البربر كانت تعبر عن حسن استغلالهم لموارد البيئة، ومدى التفاعل معها باقتدار، بل وربما استفاد البربر من تجارب العرب الوافدين في البناء، فأصبحت البيئة المغربية نسيجاً عربياً إسلامياً خالصاً بفعل أثر الحضارة الإسلامية الذي تغافل عنه ابن خلدون عفا الله عنه .

وفي نهاية ملامح هذه الرؤية، يمكنني القول مجتهداً بأن العرب كانوا ولا يزالون، وسيبقون - إن شاء الله تعالى - أصحاب رسالة دينية وثقافية وتعليمية ترتبط بالإسلام ورسالته وحضارته، وإنهم سيبقون بخير ما داموا مدركين ملتزمين برسالتهم وأهميتها؛ فهم مادة الإسلام، وعلى أرضهم ولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أكنافهم قامت الدعوة الإسلامية، وحملوا لواء الفتوحات الإسلامية في كافة بقاع العالم شرقاً وغرباً، وجاء في وصية "سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - عن

=ما قاله عن التشيع لرأى أو مذهب، والغفلة عن الهدف والمقصد من الخبر، وغير ذلك كثير مما أورده دراسات متخصصة .

انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٩، ١٠؛ تاريخ ابن خلدون، مج ١، ص ٩، ١٠؛ أحمد صبحي منصور: مقدمة ابن خلدون، ص ٧٤؛ وثمة آراء تشير إلى أن ابن خلدون قد وقع في حملة أخطاء أنكرها على غيره من المؤرخين، وكان الأولى به أن يلتزم بما دعا غيره إلى الالتزام به، لكنه لم يفعل هذا . انظر . فوزية صعب المهيدب: الدولة الأموية وموقف ابن خلدون مها، ط ١، مكتبة دار المعالم الثقافية، الإحصاء، السعودية، ٢٠٠٥م، ص ٦٤؛ وليس هدفي في إطار رؤيتي هذه إحصاء أخطاء ابن خلدون، كما أنى لست أول من نبه من الباحثين على الأخطاء المذكورة ولن أكون آخرهم.

(١) القرآن الكريم ، سورة هود ، من الآية الكريمة رقم ٦١ .

العرب أنهم مادة الإسلام كما سبق القول، وأوصى بهم خيرًا^(١)، ولا أعني بذلك أن العرب هم سادة الإسلام، بل هم سدنته طبقًا لما قاله به الأستاذ الدكتور/ جمال حمدان في وصفه للعرب في إحدى مؤلفاته^(٢)

كما أمل ألا يكون قد أصابني الشطط في إعمال العقل تجاه نقد فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن؛ ويكفي الرجل أن منحني شرف الحديث عنه، وإنه إذا كان صادقًا في شرح بعض جوانب التاريخ الإسلامي، فإنه يكون قاصرًا على أن يشرح كل ذلك التاريخ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفخر بأنه ظفر بوسيلة يشرح فيها كل التاريخ! على حد قول ما جاء في إحدى الدراسات الرائدة عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية^(٣)

وسيبقى ابن خلدون - رحمه الله - علامة بارزة في تراثنا الفكري والإسلامي، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا، ويكفي تقدير الغرب له، ومدى ما أسهم به في إطار الفكر والعلم^(٤)... فقط اسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يعلمنا بما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وعليه - سبحانه وتعالى - قصد السبيل .

(١) انظر: ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ت " ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م" مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط ١ دار المنار ٢٠٠٠ ص ١٦٩، ١٧٠ في ذكر وصايا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وانظر في نفس المعنى. إبراهيم العدوى: تاريخ العالم الإسلامي، ج ١، عصر البناء والانطلاق، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٨٢ ص ١١.

(٢) انظر: جمال حمدان: العالم الإسلامي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مكتبة الأسرة ١٩٩٧، ص ٨٨.

(٣) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ١٠٤.

(٤) تكفى الإشارة هنا إلى ما قال به الأستاذ عنان عن تراث ابن خلدون، وأن تراثه مازال يتبوأ مكانة عالية بين التراث العالمي، وأن الغرب قد عكف على دراسة آثاره ودراسة كثير من البحوث النقدية عنه، كما أن هناك من يشير إلى انتشار فلسفته، أو ما سماه بالخلدونية، بين أوساط الأنتجلنسيا المغربية في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وبين فريق من المفكرين الأوربيين المتهمين بالعالم العربي .

انظر: عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه، ص ٣؛ عبدالقادر جغلول: الإشكاليات التاريخية...، ص ٥؛ بيد أنني لا أوافق أ عنان - رحمه الله - فيما ذهب إليه في مقدمة كتابه السابق الذكر، ص ٣ بما يشير إلى أن ابن خلدون يغمط حقه في الشرق، فسيبقى ابن خلدون - رحمه الله تعالى - علامة بارزة في تاريخ الفكر الإسلامي .

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً : القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف :

- القرآن الكريم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . المدينة المنورة ١٤١٦ هـ
- الإمام البخاري: شيخ الحفاظ محمد بن إسماعيل ت " ٢٥٦هـ/٨٧٠م"
- صحيح البخاري، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد، دار الاعتصام، القاهرة دون تاريخ
- ثانيًا : كتابات ابن خلدون :-
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨هـ/١٤٠٥م"
- مقدمة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم بيروت ١٩٩٢
- تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلدات ١، ٦، ٧، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣م
- ثالثًا : المصادر التاريخية : -
- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد ت " ٦٥٨هـ/١٢٦٠م"
- كتاب الحلة السيرة، ج ٢، تحقيق: حسين مؤنس، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥
- البكري: أبو عبدالله بن عبدالعزيز ت " ٤٨٧هـ/١٠٩٧م"
- كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، باريس ١٩٦٥ .
- التجاني : أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد : توفي بعد سنة " ٧١٧هـ/١٣١٧م"
- رحلة التجاني، تقديم وتحقيق : حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٨١ .
- الجزنائي: أبو الحسن على بن أهل ق " ٤هـ/٨٨م"
- جنى زهرة الأسي في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٩٦٧
- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن على ت " ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م"
- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط ١، دار المنار ٢٠٠٠
- ابن حماد الصنهاجي : محمد بن على ت " ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م "
- أخبار ملوك بني عبید وسيرتهم، نشر: فاندريه ايدن، باريس - الجزائر ١٩٢٧ .
- ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على ت " ٣٢٢هـ/٩٣٤م "

- كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت دون تاريخ الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ت " ٨٦٦هـ/١٤٦١م "
- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠
- الخطيب : لسان الدين أبي عبدالله محمد ت " ٧٧٦هـ/١٣٧٤م "
- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ق ٣ من كتاب أعمال الأعلام . تحقيق : أحمد مختار العبادي، إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٠
- الدباغ وابن ناجي : أبو زيد عبدالرحمن ت " ٦٩٦هـ/١٢٩٦م " أبو القاسم بن عيسى ت " ٨٣٩ هـ /١٤٣٥ م "
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج ١، تصحيح وتحقيق : إبراهيم شبوح، ط ٢ مكتبة الخانجي ١٩٦٨
- الرقيق القيرواني : أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم توفي بعد سنة " ٤٢٥هـ/١٠٣٣م "
- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: عبدالله العلي الزيدان وعز الدين موسى ط ١ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م
- ابن أبي زرع " أبو الحسن علي بن عبدالله ت " ٧٢٦هـ/١٢٢٥م "
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣ .
- الشريف الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت " ٥٦٠هـ/١٦١٤م "
- وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر وتصحيح، هنري بريس الجزائر ١٩٥٧م
- ابن الصغير : مؤرخ الدولة الرستمية عاصر ق " ٩هـ/٣م "
- أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق : محمد ناصر، وإبراهيم بجاز، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م
- عبدالواحد المراكشي: محيي الدين أبي محمد ت " ٦٤٧هـ/١٢٤٩م "
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣
- ابن عذارى المراكشي : عاش أوائل ق " ٨هـ/١٤م "

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإيفي بروفنسال، ط٣، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة ١٩٨٣
- البيان المغرب ...، ج٤، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط٣ الدار العربية للكتاب، دون تاريخ
- العزيزي: أبو على منصور كاتب جوذر خادم المهدي توفي أيام الحاكم بأمر الله .
- سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تقديم وتحقيق: د. محمد كامل حسين، د. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٥٤م كاتب مراكشي : من كُتَّاب ق " ١٢/هـ٦م"
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد - دار النشر المغربية ١٩٨٥
- ليون الإفريقي: الحسن محمد الوزان الفاسي توفي بعد عام " ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م"
- وصف أفريقيا، ج٢، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣
- مارمول كرنجال: من رحالة القرن " ١٠هـ / ١٦م"
- أفريقيا، ج٢، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط ١٩٨٨ - ١٩٨٩
- المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد ت بعد سنة " ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م"
- كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ...، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، ج١، ط٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٥٤م.
- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري " ٧١١هـ / ١٣١١م "
- لسان العرب، مجلدات ٣، ٤، ٥، تحقيق: عبدالله العلي الكبير وآخرين، دار المعارف دون تاريخ
- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله ت " ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م"
- معجم البلدان، مجلدات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، دار صادر بيروت دون تاريخ .
- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب ت " ٢٨٤هـ / ٨٩٧م "
- وصف أفريقيا الشمالية، مأخوذة من كتاب البلدان، نشر وتصحيح: هتري بيريس، الجزائر ١٩٦٠.

- رابعًا : المراجع العربية :-
- د. إبراهيم العدوي
- تاريخ العالم الإسلامي، ج ١، عصر البناء والانطلاق، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٨٢ .
- د. أحمد إبراهيم الشعراوي
- دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥ م
- د . أحمد صبحي منصور
- مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، دار الأمين، القاهرة ٢٠٠٣ م
- د . أحمد مختار العبادي
- الصقالبة في إسبانيا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٣ .
- اسماعيل العربي
- عواصم بني زيزي، ط ١ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤
- د . جمال حمدان
- العالم الإسلامي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧
- الحبيب الحنجاني
- القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨
- د . حسين مؤنس :
- فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية دون تاريخ .
- تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول / الجزء الأول (١/١) ط ١ العصر الحديث للنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٢ م
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط ٢ دار الرشاد ١٩٩٧
- د . سعد زغلول عبدالحميد :
- تاريخ المغرب العربي، ج ١، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٥
- تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩
- تاريخ المغرب العربي، ج ٣، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٠

- د. السيد عبدالعزيز سالم
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢
- د. طه حسين
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمه عن الفرنسية : محمد عبدالله عنان، ط ١ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٥ م
- د. عادل يحيى عبدالمنعم
- النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين " ق ٣ - ٩ هـ / ٩ - ١٥ م" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨ م
- العلم والتعليم في المغرب العربي من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين، " ٢١ - ٦٦٨ هـ / ٦٤١ - ١٢٦٩ م" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢١ م
- انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا من خلال ما كتبه أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي ... في كتابه رياض النفوس ...، المجلة التاريخية المصرية، مج ٥٢، القاهرة ٢٠١٨ م
- د. عبدالحليم عويس
- دولة بني حماد، ط ٢ دار الصحوة، الوفاء ١٩٩١ م
- د. عبدالرحمن بشير
- اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط ١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٤ م
- د. عبدالقادر جغلول
- الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ط ٤ دار الحداثة بيروت ١٩٨٧
- د. عفيفي محمود ابراهيم
- الدلالات التاريخية للأساطير الخاصة باختطاط الحواضر المغربية في عصر الدويلات المستقلة " أنموذج فاس " مجلة التاريخ والمستقبل آداب المنيا عدد يناير ٢٠٠٠

- د. فوزية صعب المهيدب
- الدولة الأموية وموقف ابن خلدون منها، ط١ مكتبة دار المعالم الثقافية، الأحساء، السعودية ٢٠٠٥م
- د. محمد عبدالله عنان :
- دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول / القسم الأول، ط٣ مكتبة الخانجي ١٩٨٨
- ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، مؤسسة مختار، القاهرة ١٩٩١
- د. محمد العروسي المطوي
- سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) ١٩٨١ .
- د . محمد عيسى الحريري
- الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (١٦٠ - ١٩٦ هـ) ط٣ دار القلم، الكويت ١٩٨٧ .
- د. محمد كمال شبانه
- الدويلات الإسلامية في المغرب، دراسة تاريخية حضارية، القاهرة، دون تاريخ .
- د . محمد محمد زيتون
- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط١ دار المنار، القاهرة ١٩٨٨ .
- محمود المنتصر الكتاني
- فاس عاصمة الأدراسة ورسائل أخرى، ط٢ بيروت ١٩٧٢
- د . محمود إسماعيل
- مغربيات، دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المحمدية المغرب ١٩٧٧
- خامساً : المراجع المترجمة، أو المُعربة:-**
- روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية، ج١، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢.
- وليام سبنسر : المنجزات الإسلامية في تخطيط المدن من الوجهة التاريخية، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ج١، جامعة حلب ١٩٧٧ .

سادسًا : المراجع الأجنبية والمواقع الإلكترونية :

BLACHERE, R :

- FES CHEZ LES GEOGRAPHES ARABES DU MOYEN-AGE., HESPERIS.,
TOME XVIII., 1434 PP 41- 48

GEORGES MARCAIS:

-La Berberie Musulmane Et L'orient Au Moyen Age., par is 1946 .

ZBISS, S. MOSTFA:

-Mahdia Et Sabra - Mansouriya ., Journal Asiatique., Tom CCXLIV., Année
1956.

المواقع الإلكترونية :

Islamon Line net /Archives

- مقاييس وأوزان أهل زمان